# ملحق كتاب
# الجهاد المشروع في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

الحمد لله. وبعد: فإن الاختلاف بين العلماء في فروع المسائل هو أمر واقع ما له من دافع، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. وكان أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان يقع دائماً بينهم النزاع في الأحكام وأمور الحلال والحرام.

لكنهم وإن تنازعوا فيما تنازعوا فيه فإن الصحبة والمحبة ثابتة بينهم لا يزيلها الخلاف، ولا ينقصها غلب أحدهم بالحجة، فيردون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول.

فبعضهم يصيب الحق فيعظم الله أجره، ويرفع في العالمين درجته، وينتشر بين الناس فضله. وبعضهم يخطئ إصابة الحق بعد اجتهاده في طلبه فيحظى بأجر واحد من ربه، ويغفر الله له خطأه، تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾[1]. قال الله قد فعلت.

وإن هذه المقدمة قد عملتها لتكون بمثابة الترجمة الواسعة (للجهاد المشروع في الإسلام) فهي بمثابة التمحيص والتصحيح لهذه المسألة التي طال فيها الجدال بين العلماء مع العلماء، وبين الأساتذة مع الطلاب، وبين أفراد المسلمين مع أهل الكتاب، فكل إنسان يعبر عنها بما يعتقده في نفسه مما عسى أن يتلقاه من فقهاء مذهبه، لهذا أحببت أن أبين سبب الجهاد وموجبه، وكيف كانت سيرة النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه، ومن يستحق القتال ومن لا يستحقه، وكون الرسول يسالم من يسالمه، وإثبات الأمر اليقين في ذلك، وإزاحة الشك والإشكال والكذب عنه مما عسى أن لا تجده مفصلاً في غيره، وعسى أن ينقطع به النزاع، ويعيد الخلاف إلى مواقع الاجماع.

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

هذا وإن الانتفاع بكتاب كهذا يحتاج إلى تفقه في سائر فصوله مع التخلي عن التعصب للشيوخ والمذاهب وأقوال الفقهاء القديمة الخالية من الدليل والبرهان، ولا أقول بعصمته، فقد يخفى على قائله ما عسى أن يظهر لقارئه، وفوق كل ذي علم عليم.

وإن أغرب ما سمعته في هذا الزمان مما يتعلق بالجهاد المشروع في الإسلام هو قول الشيخ صالح اللحيدان في كتابه (الجهاد في الإسلام بين الدفاع والطلب). قال: (إن الرسول وأصحابه لم يدافعوا عن أنفسهم في وقعة بدر بل كانوا مبتدئين بالقتال طالبين للعدو)، وقال: (إن حروب الرسول وأصحابه لهوازن وحصاره للطائف وكذلك الغزوات الأخرى حيث كان الرسول هو البادئ بالقتال لنشر هذا الدين بين الناس، ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنهم لم يسبق لهم ذلك إلا في نادر الأحوال).. انتهى.

وأقول إن هذه الغلطة الكبيرة إنما نشأت عن نقص علم وقصور فهم، أراد بها تعزيز رأيه فيما يعتقده من أن الرسول وأصحابه يقاتلون جميع الناس حتى يسلموا، وليس لها سبب في عدوان من يقاتلهم لأنه يعتقد في نقله على ما يعتقده في نفسه بدون رجوع منه إلى صحيح المنقول، وبدون فقه منه في سبب غزوات الرسول، ويظهر منه أنه بطيء العهد بتعاهد القرآن الذي فيه تفصيل هذه القضية على الجلية بأحسن تبيان، فإن به تحقيق بداية المشركين بالعدوان؛ إذ أن هذا الأمر اليقين الذي يرتفع عن مجال الشك والإشكال لثبوته بمقتضى الدليل والبرهان والسنة والقرآن، وكلما بعد الإنسان عن تدبر القرآن ضعفت حجته، فمن قال إن الرسول هو البادئ بالقتال بدون سبب يوجبه من المشركين فقد أعظم الفرية عليه، وقال بما لم يحط بعلمه، ويخشى من تعدي غلطه إلى بعض من يسمعه من جهلة العوام وضعفة العقول والأفهام، فيظنونه حقاً وهو بالحقيقة باطل.

وسنورد من الدلائل النقلية والبراهين الجلية ما يزيل اللبس عن هذه القضية حتى تكون جلية للعيان، وحتى لا يختلف فيها اثنان، وليس من شأن الباحث أن يُفْهِم

من لا يريد أن يَفْهم، فمن دلائل القرآن قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(١).

فأثبت سبحانه في هذه الآية بداية المشركين، بالاعتداء بالقتال على الذين أسلموا من أصحاب النبي ﷺ وأنهم يسومونهم سوء العذاب ليردوهم عن دينهم كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(٢) وهذا القتال يشمل الضرب والتجريح.

فقد كان الصحابة يأتون إلى رسول الله ﷺ منهم المضروب ومنهم المجروح، وقد توفيت سمية أم عمار تحت التعذيب لصدها عن دينها، كما توفي زوجها ياسر. وكان رسول الله ﷺ يمر عليهما وهما يُعذبان ويقول: "**صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**"، وكانوا يحمون الحجارة ويضعونها على بطن بلال وظهره ويقولون: قل واللات والعزى ويقول: أحد أحد.

ولهذا قال: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا". فأثبت ظلم المشركين في تعذيبهم للمؤمنين بفنون التعذيب والأذى، ولا ذنب لهم إلا أنهم يقولون: ربنا الله ونبينا محمد. "وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق" فقد أخرجوا الصحابة حتى أخرجوهم من بلدهم، والإخراج من البلد نظير القتل في كتاب الله، فقد خرج فوق الثمانين من الصحابة ما بين رجال ونساء إلى الحبشة يمشون على أرجلهم حتى أتوا ساحل البحر كله فراراً بدينهم من الفتنة، وبأبدانهم من التعذيب، وبعضهم خرج مهاجراً إلى المدينة.

والنبي ﷺ خرج مهاجراً خائفاً مختفياً يقول: "**والله إنك لأحب بلاد الله إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت**" وكانوا يصادرون أموال كل من هاجر إذا لم تكن له قبيلة تحمي ماله، كما صادروا أموال صهيب الرومي، وأنزل الله فيه:

---

(١) سورة الحج: ٣٩-٤٠.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾(١). ولهذا قال الصحابة: ربح البيع صهيب.

ومنها قوله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٢).

فأثبت سبحانه أن المشركين أخرجوا المستضعفين من بلادهم وأموالهم في سبيل هجرتهم ونصرتهم لرسول الله ﷺ يبتغون بذلك فضلاً من الله ورضواناً، ولا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله ورسوله.

ومنها قوله سبحانه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٣). فبسط اليد بالسوء هو بالضرب والتجريح والشجاج، وبسط الألسنة بالسوء أي بالسب واللعن والسخرية وسائر الأذية ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾(٤).

ومنها أن الله سبحانه أكد ابتداء المشركين بالاعتداء على النبي ﷺ وعلى أصحابه في بداية الأمر ونهايته، فقال سبحانه: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾(٥). فأثبت سبحانه بداية المشركين بالاعتداء على الرسول وأصحابه في بداية الأمر ونهايته وأنهم نكثوا أيمانهم وعهودهم التي أبرموها مع الرسول في صلح الحديبية، وأنهم هموا بإخراج الرسول كما حصروه مع عمه أبي طالب في الشعب يطالبون أبا طالب بتسليمه إليهم ليقتلوه. وهذا معنى قول أبي طالب في قصيدته:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسّد في التراب دفيناَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٧.
(٢) سورة الحشر: ٨.
(٣) سورة الممتحنة: ٢.
(٤) سورة آل عمران: ١١٨.
(٥) سورة التوبة: ١٣-١٥

وإنما اشتد الأذى بالرسول بعد موت أبي طالب، بل وهموا بقتله حيث اتفقوا على أن يدفعوا لكل رجل سيفاً فيضربونه جميعاً بسيوفهم فيضيع دمه بينهم، فأطلع الله رسوله على ذلك، وأذن له بالهجرة، وأنزل الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]. ومنها قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾. أي لأجل إيمانكم بربكم [2].

فأثبت سبحانه شدة عداوة المشركين لله ورسوله وعباده المؤمنين، وأنه يحرم على المؤمنين موالاتهم بإظهار المودة لهم، وقد كفروا بما جاءكم من الحق الذي هداكم الله به. ثم قال يخرجون الرسول من بلده لأنه خرج من مكة مكرهاً وخائفاً مختفياً كما خرج المؤمنون فراراً بدينهم من الفتنة وبأبدانهم من التعذيب لأجل إيمانهم بربهم. مثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3] فأثبت سبحانه قتال المشركين للمؤمنين على دينهم لأجل إيمانهم بربهم ليردوهم بطريق الإكراه إلى ملة الكفر الذي أنقذهم الله منها.

فهذه كلها آيات محكمات لا نسخ فيها ولا تبديل ولا تخصيص، ولا يجوز لأحد تغييرها ولا النظر في رأي يخالفها.

وأما الاستدلال بفقه السيرة مما يثبت ابتداء الاعتداء من المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه وأنه إذا قاتل فإنما يقاتل لصد العدوان عن الدين وكف الأذى والاعتداء عن المؤمنين، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين.

أما مسألة الجهاد بالدفاع عن الدين وعن أذى المعتدين فقد اعتنى العلماء المتأخرون بتصحيحها وتمحيصها أشد من اعتناء الفقهاء المتقدمين حتى ارتفعت

(١) سورة الأنفال: ٣٠.
(٢) سورة الممتحنة: ١.
(٣) سورة الممتحنة: ٩.

عن مجال الإشكال والغموض إلى حيز التجلي والظهور. فضعف فيها الخلاف، وكاد ينعقد عليها الإجماع. وإن غزوات الرسول ﷺ كلها دفاع عن الدين وكف أذى المعتدين على المؤمنين، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين.

ونشير الآن إلى غزواته وأسبابه التي أشار الكاتب بأنها وقعت من الرسول ﷺ بطريق الابتداء بدون سبق عدوان من المشركين فمنها:

حديث العير والنفير حيث خرج رسول الله في بعض أصحابه يريدون عير قريش، ومن المعلوم أن قريشاً هم الأعداء الألداء والبادؤون بالاعتداء على الرسول ﷺ وأصحابه، وقد استباحوا تعذيب الصحابة وأخذ أموالهم فهم أئمة الكفر الحلال دمهم وأموالهم، أفيلام رسول الله وأصحابه عندما حاولوا أخذ العير ليتقووا بها على حرب عدوهم كما كان عدوهم يفعل ذلك بهم فيأخذون أموال المهاجرين إذ هذا من باب المقاضاة بالمثل؟ وقد قيل: الشر بالشر، والبادئ أظلم. يقول الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[1]. وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2] وقال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3].

أما وقعة بدر فقد حدثت على غير ميعاد سبق، وكان الرسول قد كره وقوعها، وقد نزل بأصحابه بالعدوة الدنيا مما يلي المدينة، ونزل المشركون بالعدوة القصوى مما يلي مكة، وقد أرسل أبو سفيان إليهم يطلب منهم أن يرجعوا قائلاً إن عيركم وأموالكم قد سلمت، فارجعوا إلى بلادكم، لكنهم كما أخبر الله عنهم خرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، ومعلوم قرب بدر من المدينة، فهم قصدوا حرب الرسول ﷺ وأصحابه بطريق التحرش بهم، وكان سبب بداية القتال أن أبا البختري قال والله لأردن حوض مياه محمد ولأكسرن حوضهم، وفعلاً اندفع يريد أن يهدم الحوض فتلقاه حمزة بسيفه فقطع رجله ثم انعقد سبب القتال بين الفريقين.

ولما نصر الله نبيه وأصحابه وقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، ووضعوا عليهم الفدي وبعدها سرحوهم بكفرهم إلى أهلهم وبلدهم امتثالاً لأمر الله سبحانه

(١) سورة النحل: ١٢٦.
(٢) سورة الشورى: ٤٠.
(٣) سورة الشورى: ٤١.

حيث قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1] فذكر سبحانه المن والفدي بعد الأسر، ولم يذكر القتل إلا في حالة التقاء الصفين.

فلو كان الكفار يقتلون حتى يسلموا لطالبهم النبي ﷺ إما بالإسلام أو بالسيف وهذا واضح جلي لا مجال للشك في مثله، ولكنه قال: "**أستأني بهم لعل الله أن يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**".

إن قتال الرسول ﷺ لقريش في بدر هو صريح لرد عدوانهم إذ أنهم محاربون لله ورسوله وعباده المؤمنين، والمحارب يُقاتَل في أي حال وجد كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[2] وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[3].

فقتال الرسول لهم في بدر هو قتال لدفع شرهم وعدوانهم، فهو جهاد بالدفاع. ولم يكن قتاله لهم لإكراههم على الدين حسبما يظنه الكاتب، ولم يكن وقع ابتداء من الرسول ﷺ بدون عدوان يوجبه منهم، بل هم البادئون بالاعتداء، والمعلنون بالحرب لله ورسوله والمؤمنين.

ثم ليعلم أن الكفار منهم المحاربون ومنهم المسالمون، وقد نزل تفسيرهم في تفصيل ما يجب أن يعاملوا به فقال في شأن المسالمين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4]. ثم قال في شأن المحاربين: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5]. وهذه آيات محكمات، لا نسخ فيها ولا تخصيص، وإنما نزلت عام

---

(١) سورة محمد: ٤.
(٢) سورة البقرة: ١٩٠-١٩١.
(٣) البقرة: ٢١٧.
(٤) الممتحنة: ٨.
(٥) الممتحنة: ٩.

الفتح، وهي ترد على من جعل الكفار كحالة واحدة، وأنه يجب أن يقاتلوا بطريق الهجوم أي الابتداء حتى يسلموا، لا فرق في ذلك بين المحاربين والمسالمين، فهذا لا صحة له قطعاً.

ومثله قتال الكفار المشركين للرسول وأصحابه يوم أحد حيث غزوا الرسول ﷺ وأصحابه في بلادهم فقتلوا سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ، وهل قتال الرسول ﷺ لهم إلا دفاعاً لشرهم. ثم إنهم تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه يوم الأحزاب ومنهم عرب الحجاز ونجد، ونقضت اليهود العهد الذي بينهم وبين رسول الله ودخلوا مع قريش من حرب الرسول ﷺ وتبعهم يهود خيبر لظنهم أنها الفاصلة المستأصلة للرسول ﷺ وأصحابه حتى ضرب النبي ﷺ على المدينة خندقاً يمنع تجاوز الخيل، وبلغ الخوف مع الرسول ﷺ وأصحابه إلى نهاية الشدة وأنزل الله فيه صدر سورة الأحزاب وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ إلى قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾(١).

أفيقال إن الرسول ﷺ هو البادئ بالقتال لأجل كفرهم وهم لم يبقوا للصلح موضعاً مع الرسول ﷺ وأصحابه ولم يألوا جهداً في فتنتهم للمؤمنين وتعذيبهم؟ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٢).

(١) سورة الأحزاب: ٩.
(٢) سورة الممتحنة: ٢.

ثم حارب الرسول ﷺ يهود المدينة بعد نقضهم لعهده ومحاربتهم له مع قريش فقتل بعضهم، وأجلى بعضهم، ومنّ على بعضهم. ثم قاتل يهود خيبر، فلما نصره الله عليهم وفتح خيبر رفع القتل عنهم، وأجرى الاتفاق بينه وبينهم على زراعة النخيل بشطر ما يخرج منها، وهذه سنته في فتوح البلدان، وهو أنه متى نصره الله عليهم وفتح البلد فإنه يرفع القتل والقتال عن أهلها، ولا يسأل أحداً عن عقيدته، فكل ما يسمعه الناس وتبينه كتب السير والتاريخ من القتال في فتح البلدان كفارس والروم فإنما يقع هذا القتال خارج البلد حين يخرج أهلها بسلاحهم وقوتهم يريدون صد المسلمين ودعاتهم عن نشر دين الله في بلادهم الذي فيه سعادتهم وسعادة البشر كلهم والذي كلف المؤمنون بإبلاغه الناس مهما كلف الأمر، فهم يخوضون كل شدة ويقتحمون كل مشقة في سبيل نشره وإبلاغه، فإن أعرضوا أي عن قبول هدايته ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾(١).

ولا ينبغي أن ننسى ما فعله رسول الله ﷺ في فتح مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ صالح قريشاً يوم الحديبية على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن من دخل في عقد الرسول ﷺ وعهده فإنه منه، ومن دخل في عقد قريش فهو منهم. فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ فنقضت قريش هذا العهد بقتلهم لخزاعة على حين غفلة منهم، فغزاهم رسول الله ﷺ عام الفتح لاعتبار أنهم محاربون له ولمن دخل في عهده، فدخل مكة والسلاح بأيدي أهلها، وحذر أصحابه من أن يتعرضوا لقتل أوباش قريش عندما يلقونهم. ولما سمع سعد بن عبادة يرتجز بتمني القتال وكان معه راية الأنصار ويقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الكعبة. فأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس.

ولما دخل مكة وسّع نطاق الأمان لأهلها ولم يرعهم بقتل ولا قتال إلا أفراداً عرف أن بقاءهم يفسد بقيتهم منهم عقبة بن أبي معيط الذي هو أشر قريش والذي وضع سلى الجزور على رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد. ومنهم النضر بن الحارث

(١) سورة الشورى: ٤٨.

الذي يهجو رسول الله بشعره. وقد أسبل المن والعفو على جميعهم وقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ولم يسأل واحداً منهم عن دينه حتى دخلوا في دين الإسلام باختيارهم وصدق عليهم قوله سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وإن أردت تفصيل ذلك بتفسيره فراجع قضية الفتح الأكبر الذي أعز الله به الإسلام ونصر، وأذل به الباطل وكسر في كتابنا هذا تجد فيها ما يشفي ويكفي.

وأما قضية هوازن حيث صرح الكاتب عنها قائلاً: (إن حروب الرسول ﷺ وأصحابه لهوازن وحصاره للطائف حيث كان الرسول هو البادئ للقتال لنشر هذا الدين بين الناس ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنهم لم يسبق لهم ذلك إلا في نادر الأحوال).

وأقول إن الشيخ رحمه الله يكتب عن القضايا كهذه وغيرها على حسب ما يضمره في نفسه بدون رجوع منه إلى أصول القضايا والغزوات من مظانها في كتب السير والتاريخ؛ لهذا السبب كثر خلطه وخبطه بدون بصيرة من أمره فيجعل الباطل حقاً والحق باطلاً، وقد قيل لي إن كتابه لا يستوجب الرد لأنه معلوم البطلان عند كل واحد فقلت للمعارض: إن كل من أوصلته خبراً لن تستطيع أن توصله عذراً، ولكن وجوب البيان وتحريم الكتمان يوجب علينا رد هذا البطلان خشية أن يحتج به بعض من يرى صحته أو بعض من يعتقد اعتقاده؛ لأنه متى قل العلم، وساء الفهم، ساءت النتيجة، وقد قيل: "خلاصة القول تظهر بالسبك، ويد الحق تصدع آراء الشك".

سبكناه ونحسبه لجينا  فأبدى الكير عن خبث الحديد

وقد عقدنا لوقعة الهوازن فصلاً مستقلاً، وذكرنا فيه سبب هذه الغزوة التي أنزل الله في شأنها: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

(١) سورة الممتحنة: ٧.  (٢) سورة التوبة: ٢٥-٢٦.

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أنه لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين وسمعت هوازن بذلك فشرقوا بهذا الفتح حنقاً وبغضاً للرسول ﷺ وأصحابه وولاء ومحبة منهم لقريش فعزموا على أن ينتقموا من الرسول ﷺ وأصحابه فجمعهم ملكهم مالك بن عوف النضري فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها على بكرة أبيها واجتمع إليه نضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وكثير من شتى القبائل ومن عرب الحجاز ونجد ومعه يومئذ دريد بن الصمة وهو كبير يحمل في هودج ليأخذ من رأيه حيث أنه مجرب في الحروب، فزحفوا بجمعهم من عوالي نجد بأهلهم وعيالهم وأموالهم لقصد الحفيظة حتى لا يفروا عن القتال، ونزلوا بعسفان بين مكة والطائف ليفاجأ الرسول ﷺ وأصحابه بالهجوم عليهم من قريب لظنه أن أهل مكة المغلوبين سيكونون عوناً له على القتال معه.

ولما سمع رسول الله ﷺ بخبرهم خرج إليهم بمن معه من أصحابه وبعض أهل مكة ومنهم مسلمون وبعضهم باقون على شركهم فوصل إليهم رسول الله ﷺ في عماية الصبح بعد فتح مكة بعشرة أيام، وكانت هوازن قد كمنوا في الشعاب والمضايق، وقد تهيؤوا لينفروا جميعاً، ولم يرع أصحاب رسول الله ﷺ إلا والكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد فشمر الصحابة راجعين لا يلوي منهم أحد، على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين وهو يقول: **"إلي أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله"** وقد بقي معه نفر من المهاجرين وأهل بيته ومنهم أبو بكر وعمر ومن أهل بيته علي والعباس وابنه الفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن وقتل يومئذ.

ولم يتراجع القوم إلا وبعض الأسرى عند رسول الله ﷺ ولم يقتل أحداً منهم بعد أسرهم، وتفرقت هوازن ومن معهم، وفرت ثقيف إلى بلدهم. أفيصدق أن يقال والحالة هذه أن الرسول ﷺ هو البادئ بقتال هوازن بدون سبب يوجبه منهم؟ وهل بقي من هوازن إلا هجومهم على الرسول ﷺ في مكة؟ ولا يدري عن سوء عاقبة هذا الهجوم فإنه ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، وساءت حالهم، وقد قيل كل محصور مأخوذ.

وأما حصاره للطائف فإن ثقيف على بكرة أبيهم كانوا مع هوازن في الحرب على رسول الله ﷺ فلما نصر الله رسوله والمؤمنين فروا إلى بلدهم وتحصنوا فيها، فهم مستحقون للقتل والقتال لثلاثة أمور: أحدها مشاركتهم لهوازن على حرب رسول الله فهم محاربون لله ورسوله وعباده المؤمنين، والله يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾[1]. وقال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[2].

**والأمر الثاني:** أن الرسول ﷺ جاءهم قبل الهجرة وطلب منهم أن يؤووه وينصروه حتى يبلغ رسالة ربه، وقد قيل إنه مكث عندهم عشرة أيام، فلما أحسوا أن بعض ثقيف مال إليه وصدق دعوته لهذا أرسلوا عليه سفهاءهم، فكانوا يرمونه بالحجارة، ورؤساؤهم ينظرون إليهم، ويضحكون من فعلهم، وهم يقولون: مجنون كذاب. وزيد بن حارثة يقيه ببدنه عن وقوع الحجارة فيه حتى رجع كئيباً حزيناً من فعلهم.

**الأمر الثالث:** أنه بعد ما فرغ رسول الله ﷺ من أمر هوازن ذهب إلى ثقيف رجاء أن يثوب إليهم عقلهم فيفتحوا له الباب، ويسهلوا له الجناب، حتى يبلغ رسالة ربه في بلدهم كما فعل أهل مكة. ومن سيرته أنه لا يعاقب أحداً بجريمة سلفت منه مهما عظمت متى خلوا بينه وبين نشر دعوته في بلدهم، لكنهم عصوا وتمردوا وناصبوه العداوة فرماهم بالمنجنيق، ونصب عليهم الدبابة، فكانوا يحمون النبال بالحديد ويرمون بها من في الدبابة، ويرمون الصحابة من وراء الجدران وفي السطوح حتى قتلوا سبعة من أصحاب النبي ﷺ، فانصرف عنهم وتركهم حتى هداهم الله للإسلام وأتوا إليه طائعين.

فهذا ملخص حصاره للطائف وهي مبسوطة بكاملها في كتابنا هذا.

وأما غزوه لتبوك حيث أشار إليه الكاتب فإن سببه أنه بلغ رسول الله ﷺ بأنه اجتمع جنود من بلخ وجزام وغسان وبعض متنصرة العرب وقد اجتمعوا في تبوك يريدون غزو رسول الله ﷺ وأصحابه وقد قدموا مقدماتهم إلى البلقاء وذلك عام تسع من الهجرة فندب رسول الله ﷺ أصحابه عام العسرة أي زمن جهد ومجاعة

---

(١) سورة النحل: ١٢٦.

(٢) سورة الشورى: ٤١.

وانقطاع ظهر فخرج في ثلاثين ألفاً من أصحابه فكانوا يمرون على قبائل العرب من الحضر والبدو بوادي القرى والذين لم يدخلوا في الإسلام بعدُ حتى وصلوا إلى بلد تبوك وبها من بها من الناس فلم يرع أحداً منهم بقتل ولا قتال لأنه إنما قصد الذين ظاهروه بالعداوة وبرزوا لحربه وأصحابه لكنه في سفره لم يلق كيداً ووجدهم قد تفرقوا. فرجع إلى بلده مؤيداً منصوراً.

فهذه المقدمة نشير فيها إلى بعض الفواقر من المقتطفات التي ذكرها الكاتب وكلها مفصلة بأسبابها في ضمن الكتاب.

والله الموفق للصواب

**المؤلف**

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

أما بعد:

فقد أهدى إليّ أحد المشايخ الكرام كتاباً عنوانه "الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع" لمؤلفه الشيخ صالح اللحيدان فعملت عملي في دراسته لأعجم عود فراسته، وأعرف حقيقة سياسته، فألفيته قد عمل عمله كرد منه على كتابنا "الجهاد المشروع في الإسلام".

وقد بنى قواعده على أمرين: أحدهما زعمه بأن الجهاد المشروع في الإسلام هو قتال الكفار حتى يسلموا بطريق الطلب، لا فرق في ذلك بين المحاربين والمسالمين! وزعم أن رسول الله ﷺ وأصحابه هم المبتدئون بالقتال في غزواتهم، وأنهم المطالبون للعدو؛ لأن خروجهم لعير قريش لا يعني غير هذا، ولم تكن غزواته لهم لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنه لم يسبق لهم ذلك إلا في نادر الأحوال، وأخذ يندفع في تحقيق رأيه، وتفنيد كلام من يخالفه، وهذه هي طريقة بعض العلماء المتقدمين وأكثر العامة، حتى حسبها الكاتب حقاً لا يجوز تبديله ولا النظر في أمر يخالفه!

الأمر الثاني: قول من يقول إن سبب الجهاد هو الدفاع عن الدين ودفع أذى المعتدين على المؤمنين، وأن الرسول ﷺ إذا قاتل فإنما يقاتل لرد العدوان على الدين أو على عباده المؤمنين، وقد سخط الكاتب هذا القول أشد السخط، وتحامل على القائلين به بالإنحاء بالملام، وتوجيه المذام بدون كرامة ولا احترام، فوسمهم بالزراية وعدم الدراية والروية بعبارات كلها تقتضي الجنف والجفاء، وتنافي الإنصاف والجفا، قد جعل فيها الجد عبثاً، والتبر خبثاً، والصحيح ضعيفاً.

وكم من مليم لم يصب بملامة ومتبع بالذنب من لا له ذنب

إن الاختلاف بين الناس واقع ما له من دافع، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وأن العصمة عن الخطأ تأبى لكتاب غير كتاب الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(١).

إن هذا الاختلاف بين العلماء إنما ينشأ غالباً من تفاوت الأفهام في العلوم والأحكام، وعدم التوسع في النصوص والقصود وسائر العلوم والأحكام. لأن الناس بدليل الاختبار يتفاوتون في العلوم والأفهام، وفي استنباط المعاني والأحكام أعظم من تفاوتهم في العقول والأجسام، فيتحدث كل إنسان بما فهمه حسبما وصل إليه علمه، وعادم العلم لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه، فمن واجب العالم أن يبدي غوامض البحث ويكشف للناس مشاكله، ويبين صحيحه وضعيفه، مدعماً بدليله حتى يكون جلياً للعيان، وليس من شأنه أن يُفْهِم من لا يريد أن يَفْهَم!

وقد أدركنا على هذا الكتاب بعض الأخطاء التي سنذكرها في مواضعه، ولن يستحق أن يرد على مثله لوضوح اعتلاله واختلاله وعدم عدالة أقواله، وليس تحامله على العلماء المخالفين لرأيه بأكبر من تحامله على الرسول ﷺ وأصحابه حيث نسبهم في غزواتهم إلى أنهم البادون بالاعتداء بدون سبب يوجبه من الأعداء سوى إكراههم على الدين.

ويبعد جداً حمل هذا الخطأ على التعمد مع علمه به، ولكنه نشأ عن مبلغ فهمه وغاية ما وصل إلى علمه، وإننا لنرجو له أجراً على خطئه وأجرين على إصابته.

*****

(١) سورة النساء: ٨٢.

# العِلم سلاح الدّنيا والدين

إن من واجب العالم المخلص في علمه وعمله أن يحتسب القيام بما وصل إليه علمه من قول الحق والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، فيبيِّن للناس معرفة الحق بدليله مشروحاً بتوضيحه، وبيان تعليله وتصحيحه لكون العلم أمانة وكتمانه خيانة.

ومن المعلوم أن العلوم تزداد وضوحاً بتوارد أفكار الباحثين وتعاقب تذاكر الفاحصين؛ لأن العلم شجون يستدعي بعضه بعضاً، وملاقاة التجاوب من الرجال تلقيح لألبابها، وعلى قدر رغبة الإنسان في العلم وطموح نظره في التوسع فيه بطريق البحث والتفتيش والفحص عن الحق في مظانه فإنه بذلك تقوى حجته وتتوثق صلته بالعلم، ويقف على حقيقة الوفاق والخلاف فيه.

إن العلم الصحيح والدين الخالص الصريح هما شقيقان يتفقان ولا يفترقان، وقد مدح الله سبحانه الذي جاء بالصدق وصدق به.

إنه متى تصدى عالم أو كاتب لتأليف-أي رسالة أو أي مقالة فبالغ في تنقيحها بالتدقيق، وبنى قواعدها على دعائم الحق والتحقيق، بالدلائل القطعية والبراهين الجلية من نصوص الكتاب والسنة وعمل الصحابة وسلف الأمة، وهي مما عسى أن يقع فيها الخلاف بين العلماء من سلف الأمة فحاول جاحد أو جاهل أن يغير محاسنها، ويقلب حقائقها، وينشر بين الناس بطلانها وعدم الثقة بها حتى يكونوا أوحش عند ذكرها، وأشمس عند سماعها، فيلبسها ثوباً من الزور والبهتان، والتدليس والكتمان؛ ليعمي عنها العيان، ويوقع عدم الثقة بها عند العوام وضعفة الأفهام، أفيلام صاحبها متى كشف عنها ظلم الاتهام وأزال عنها ما غشيها من ظلام الأوهام بطريق الحجة والبرهان؟ إذ لابد للمصدور أن ينفث، والحجة تقرع

بالحجة، ومن حكم عليه بحق فالحق فلجه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فمتى لم ترسخ في قلب الإنسان معرفة الحق بدليله، ويميز بين صحيحه وعليله مما يتعلق بعقائدالدين وما يدعمها من الحجج والبراهين.. فإنه سيصاب بالانزلاق في مهاوي الجهل، ويصاب بالارتباط والخجل وعقدة الوجوم والوجل عند أول ملاقاة مع أهل الجدل.. فيبقى صريعاً لجهلهم، قد استحوذ عليه باطلهم لعدم وجود ما يصول به ويجول من علم اليقين والبصيرة في الدين. إذ العلم الصحيح سلاح الدنيا والدين وصلاح المخلوقين.. به تستنير البصيرة، وتقوى الحجة.

وإن مما ندرك على بعض علمائنا وعلى بعض الشباب المثقفين والمتعلمين كون أحدهم متى ظفر برسالة هامة تكشف له الإشكالات، وتزيل عن قلبه الشكوك والشبهات، مما يتعلق بهذه المسألة أو غيرها، وهي رسالة مختصرة صغيرة الحجم وغزيرة العلم بحيث يستطيع أحدهم دراستها في مجلس واحد أو في ساعة واحدة بدون مشقة ولا تكلف فيكون حظه منها مجرد النظر إلى عنوانها!.. وعسى أن ينشط لدراسة الوجه الأول والثاني منها، ثم يصفق بأجنحتها بعضها على بعض ويودعها في سلة المهملات، وذلك آخر عهده بها، فيعود جهد صاحبها ضياعاً، وعمله عيالاً، أشبه بمن يزف امرأة حسناء إلى عنين.. أو كالمطر الوابل في الأرض السبخة!

**فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي  فقيمة كل الناس ما يحسنونه**

*****

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

# تحقيق معنى الجهاد بالدفاع

إن الجهاد بالدفاع ليس ببدع من القول وزور، وليس بغريب مهجور، وإنما هو أمر مشهور بالكتاب والسنة واللغة العربية.

والأصل فيه قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢). وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾(٣).

والجهاد بالدفاع هو ضد الهجوم وحقيقته صد العدوان لكون الجهاد بالهجوم هو البدء بالعدوان بدون أن يكون له سبب من المهجوم عليهم، فإن سبق منهم عدوان فإنه المقاضاة بالمثل، وفيه أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾(٤). وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(٥).

فهذا وإن لم يكن له سبق ذكر بهذا اللفظ من العلماء المتقدمين لكنه معروف عندهم كمقابلة من الهجوم الذي هو المبادأة، وقد قالوا الشر بالشر، والبادئ أظلم.

وإن العلماء المتأخرين الذين بحثوا عن حقيقة غزوات النبي ﷺ فأثروا مسألة جهاده وسببها وحققوا بأن غزواته كلها دفاع عن الدين وكف أذى المعتدين، وليس هذا بالظن ولكن اليقين حتى كثر في موضوعها الجدل بين العلماء مع العلماء، وبين الأساتذة مع الطلاب، وبين أفراد المسلمين مع أهل الكتاب.

وقد جعل النصارى غزوات الرسول ﷺ بأنها هجوم على المخالفين له في الدين بدون أن يكون لها سبب من العدوان، وقد جعلوها لهم عقيدة في التنفير عن دين الإسلام في ضمن ما يفعلونه من التبشير بدينهم فكانوا يلقنون الطلاب وكافة

---

(١) سورة البقرة: ٢٥١.
(٢) سورة الحج: ٣٨.
(٣) سورة المؤمنون: ٩٦.
(٤) سورة النحل: ١٢٦.
(٥) سورة الشورى: ٤٠.

العامة بأن الإسلام دين إكراه وحرب يكرهون الناس على الخروج عن عقائدهم، يوقفون الشخص ويرفعون السيف فوق رأسه، ويقولون إما أن تسلم وإلا قتلناك، وإن لم يسلم قتلوه، وهذا هو نفس اعتقاد الشيخ صالح في قوله ونقله، وهو كذب مفترى على الإسلام وأهله، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم، فإن الله يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١). وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢). وهي آيات محكمات لا نسخ فيها في قول الجمهور لكون الإسلام هداية اختيارية.

وقد قال بعض العلماء من المتأخرين إن دعوى القتال للإكراه على الدين إنما دخل على المسلمين عن طريق النصارى حيث كانوا يجادلون به دائماً ويشنعون به على الإسلام والمسلمين لقصد التنفير عن الدين واحتقاب العداوة لأهله، ويجعلونه في مقدمة تبشيرهم إلى دينهم وينشرونه في كتبهم وفي مدارسهم، فهو أكبر مطاعن النصارى على المسلمين وعلى الدين، فسرى هذا الاعتقاد إلى بعض العلماء وأكثر العامة لظنهم أنه صحيح واقع وهو باطل بلا شك، ومن طبيعة البشر كراهية اسم الإكراه والإجبار والنفرة منه مهما كانت عاقبته، وإننا متى قلنا بهذا القول فقد اشتركنا مع القسيسين والمبشرين في التنفير عن الدين، ومتى تخاطب النصارى مع رجل من أفراد المسلمين غير العارفين بحقيقة الأمر ثم قال لهم إن الرسول يقاتل الناس حتى يسلموا فإنهم بذلك يزدادون فتنة بالمؤمنين.

﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا﴾(٣).

وبما أن الحاجات هي أم الاختراعات، ولكل حادث حديث، لهذا تصدى كثير من العلماء المتأخرين إلى بيان هذه المسألة، وأن حقيقة الجهاد الشرعي هي الدفاع عن الدين ودفع أذى المعتدين عن المؤمنين، وأن الإسلام يسالم من يسالمه، ولا يقاتل

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.
(٢) سورة يونس: ٩٩.
(٣) سورة الممتحنة: ٥.

إلا من يقاتله أو يمنع نشر دعوته أو يلقي الفتنة بين أهله بتعذيب من أسلم أو تغريبه كما كانت قريش تفعل ذلك، وإثبات الأمر اليقين في ذلك وإزالة الشك والإشكال والكذب فيه مما عسى أن لا تجده مفصلاً في غير هذا الكتاب. وقد رأينا غلط الشيخ في فهم الجهاد بالدفاع حيث عبر عنه أسوأ تعبير فجعله كنطاح البهائم قائلاً (إننا إذا قلنا بالدفاع فما الفارق بين الإنسان وبين بهائم الحيوان الذي همه أن يدافع عن نفسه لا غير) انتهى.. ففسره بهذا لعدم فقهه بشمول حكمه.

وإن هذه المسألة قد يشوبها شيء من الخفاء والغموض في بادئ الرأي لكنها بتصحيح الباحثين وتمحيص الكاتبين من أهل العلم ترتفع عن مجال الإشكال والغموض إلى حيز التجلي والظهور فتلتحق بعلم اليقين والبصيرة في الدين.

وإن الخلاف في هذه المسألة يدور بين أمرين.

**أحدهما:** أن سبب الجهاد المشروع هو الدفاع عن الدين وعن حوزة المسلمين. وحدودهم وحقوقهم وجماعتهم وأفرادهم حتى ولو في غير بلادهم كما يدافعون عن أنفسهم وأولادهم وبلادهم لاعتبار أن المسلمين متكافلون كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، وكذلك الدفاع عن الدين يمنع الطعن فيه أو فتنة من أسلم ليرتد عنه أو منع نشره في البلد بين الناس أو في سبيل المستضعفين والمضهدين في بلادهم من المسلمين. قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾[1]. فالجهاد في سبيل ذلك هو جهاد بالدفاع أي قتال من يقاتلنا أو يمنع نشر ديننا أو يلقي الفتنة بيننا، وهذا هو حقيقة جهاد رسول الله ﷺ وخلفائه وأصحابه لقوله سبحانه: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا**

(١) سورة النساء: ٧٥.

﴿قَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. أي إن انتهوا عن قتالكم فانتهوا عن قتالهم. وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2].

أي إن انتهوا عن فتنتكم فانتهوا عن قتالهم. ولم يقل سبحانه وقاتلوهم حتى يسلموا بل قال: "حتى لا تكون فتنة".

فكل هذه الآيات نزلت في المحاربين الذين يقاتلون المسلمين ويفتنونهم في دينهم.

**الأمر الثاني:** قول من يقول إن الجهاد سببه الكفر فيجب قتال الكفار حتى يسلموا، وهذا هو اعتقاد الكاتب، وقد بنى كتابه على تصحيحه واعتقاد العمل بموجبه، كما أنه اعتقاد بعض الفقهاء المتقدمين وأكثر العامة.

وقد استغل هذا القول القسيسون والمبشرون من النصارى وجعلوه عمدة لهم في دعوتهم واستغلوه في التنفير من الدين واحتقاب العداوة للمسلمين. فكل من قال بهذا القول أو دعا إليه فقد شارك القسيسين في التنفير من الدين.

فلو ظفر النصارى بكتاب الجهاد بين الدفاع والطلب للشيخ صالح لأحلوه محل التقديس والتكريم، ونصبوه في كنائسهم ومدارسهم وعمموا بتعليمه جميع طلابهم وعامتهم لكونه غاية بغيتهم. بحيث إنه يصدق مفترياتهم في إكراه الناس على الدين.

ثم قال الكاتب (إنني أعجب من كُتَّاب الفقه الإسلامي الذين قالوا بالدفاع في الجهاد. جرياً وراء التقليد بالأعداء الممقوتين وهم - والله أعلم - يدركون خطأ هذا الرأي البعيد عن الصواب وأدلة الأحكام) انتهى.

---

(١) سورة البقرة: ١٩٠-١٩١.

(٢) سورة البقرة: ١٩٣.

وأقول سبحان الله ما أغفل هذا الكاتب عن تحقيق معنى الجهاد بالدفاع فلأجل جهله بحكمته وقع في نفس ما عاب به من الجري وراء الكفار المقوتين فكان كما قيل (رمتني بدائها وانسلت). يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1]. وأن النصارى الآن ينفرون ويكرهون من يقول إن غزوات الرسول ﷺ كلها دفاع لكف العدوان عنه وعن الدين الذي جاء به لعلمهم بأنه معذور في دفعه ودفاعه لكنهم يفرحون بمن يقول إن غزوات الرسول ﷺ كلها هجوم يقع منه بطريق الابتداء بدون سبق اعتداء عليه من أحد، فهذا هو غاية ما يبغون، لكن الكاتب لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

وإن أكبر شيء حمل الشيخ على التهالك وعدم التمالك فيمن قال بالدفاع هو أنه لم يفقه معنى الدفاع على الحقيقة حيث حصره في أضيق التعبير، وفسره بأسوأ التفسير، فحمله على القعود والخمول والعجز وعدم الحركة والاستعداد إلى حين هجوم العدو فيقومون بالدفع له، وشبههم بالحيوان الذي يدافع عن نفسه!.

ثم قال الكاتب: (لقد قلت هذا بعد أن رأيت عشرين بحثاً كلها تبحث عن مسألة الجهاد بحثاً اختلف الباحثون فيه، فالذين قالوا بالدفاع من المتأخرين من الكُتَّاب والمؤرخين وكُتَّاب السيرة كلهم ليسوا بشيء كعباس العقاد وعزام وشيت خطاب وعبد الحميد جودة السحار وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل والشرقاوي والحكيم فكلهم ليسوا بشيء).

ثم ألحق بهم في الذم غيرهم قائلاً:

(والظن بغيرهم من علماء الفقه والحديث من أمثال يوسف القرضاوي في كتابه الحلال والحرام، ومحمد ناصر الألباني في كتابه حجاب المرأة المسلمة والظن بهم العودة إلى الحق واتباع سبيل المؤمنين). انتهى.

فالجواب أن نقول: حنانيك قد أفتيت فاستبق بعضنا، فلسنا بالحديد ولا الجبال. ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً يرتفع عن مجال الشك والإشكال بأن الجهاد

(١) سورة النساء: ١١٢.

المشروع في الإسلام هو الدفاع عن الدين ودفع أذى المعتدين على المؤمنين وأن الإسلام يسالم من يسالمه ولا يقاتل إلا من يقاتله أو يمنع نشر دعوته أو يلقي الفتنة بين أهله، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين الذي تدل عليه نصوص القرآن المبين وسيرة محمد عليه أفضل الصلاة التسليم، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية: (إن من لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه) أي فلا يقاتل. وما فهمه الكاتب بما قاله في صفة الدفاع فإنه ليس من خلق أهل الدين وقد قيل: (ما آفة الأخبار إلا رواتها) وقالوا: ويل للشعر من رواة السوء.

وما يشعرني أن لهؤلاء الجماعة الذين مقتهم وعدهم ليسوا بشيء أنهم أسعد بالحق والصواب منه - وأكبر ما ينقم عليهم فيه هو مخالفتهم لرأيه في مثل هذه المسألة لكونه جعل رأيه بمثابة الميزان الذي يزن به أقوال الناس.

**وكلٌّ يدعي وصلاً لليلى وليلى لا تقر لهم بذاك**

ونحن نسوق اعتقادنا في صفة الجهاد بالدفاع:

إن الله سبحانه أمر نبيه محمداً ﷺ بإبلاغ هذا الدين والتبشير به جميع خلقه فقال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[1].

وذكر العلماء بأن من شرط صحة الجهاد بالقتال هو أن تتقدمه الدعوة إلى الله لفتح القلوب بالإيمان قبل فتح البلدان، فمتى أقبل دعاة الإسلام على بلد ليدعوا أهله إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم، بالتي هي أحسن فإن فتح لهم الباب وسهل لهم الجناب وسمح لهم بالدخول ونشر دين الله والدعوة إليه والاتصال بمن يرغبون إسلامه وتعليمه فهذا غاية ما يبتغون، وبذلك فليفرح المؤمنون فلا قتل ولا قتال ولا إكراه في الدين، والكل آمنون على أهلهم وأموالهم لكون الدين هداية اختيارية لا إكراه فيه ولا إجبار، أما إذا خرج أهل البلد بقواتهم وسلاحهم فنصبوا المدافع ووجهوا أفواه البنادق وسلوا السيوف ومنعوا المسلمين

(١) سورة الأنعام: ١٩.

ودعاتهم عن دخول البلد لنشر دين الله فإنهم يعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين بمنعهم دخول الإسلام في بلدهم الذي فيه سعادة البشر كلهم في دنياهم آخرتهم لهذا يعتبر المسلمون بأنهم مكلفون من الله باقتحام كل شدة ومشقة وخوض كل خطر وضرر في سبيل نشر دين الله فيقاتلون في سبيل الله، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وهذا القتال يعتبر دفاعاً لشرهم حتى تزول الفتنة والاضطهاد عن الدين، وقتالهم إنما هو بسبب منعهم لنشر الدين لا لسبب إكراههم على الدين. يقول الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١). وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢). وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣). وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾(٤). أي لست بمسلط على إدخال الهداية قلوبهم - إن عليك إلا البلاغ. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(٥). وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾(٦).

وهذه آيات محكمات لا نسخ فيها فمتى دخل الدعاة أو الفاتحون في البلد بهذه الصفة ونشروا دين الله بدون مانع فقد صارت كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، والهداية من الله.

وقد فتح الصحابة رضي الله عنهم كثيراً من البلدان بالقرآن بهذه الصفة وهي نفس ما فعله رسوله الله ﷺ في فتح مكة. فإن قريشاً لما نقضوا العهد الذي أبرمه رسول الله ﷺ معهم في صلح الحديبية بهجومهم على خزاعة وقتلهم لهم على حين غفلة منهم، وكانت خزاعة قد دخلت في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.
(٢) سورة يونس: ٩٩.
(٣) سورة يوسف: ١٠٣.
(٤) سورة الغاشية: ٢١-٢٢.
(٥) سورة يونس: ١٠٨.
(٦) سورة الشورى: ٤٨.

فانتقض بذلك عهد قريش مع رسول الله ﷺ فعزم على غزوهم، وقال: "**اللهم عم الأخبار عن قريش حتى نبغتها في دارها**" فسار بالصحابة نحوهم عام ثمان من الهجرة وأعطى راية الأنصار سعد بن عبادة، ولما سمعه يرتجز بتمنيه للقتال ويقول: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل فيه الكعبة) فأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس. وقال للصحابة: "**إنه سيلقاكم أوباش قريش فإياكم أن تحصدوهم**" كما سيأتي الكلام موضحاً في فتح مكة حيث منّ رسول الله ﷺ على جميع أهلها. يقول الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾[1].

والمقصود أن السيف لم يصل إلى كافة الأمم التي اعتنقت الإسلام، وإنما وصل إليها هداية القرآن حيث خرج الصحابة من بلادهم والقرآن بأيديهم يفتحون به ويسودون. فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي وتحولوا بهدايته من الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والائتلاف، ومن الجفاء والقسوة إلى اللين والرحمة، ومن البداوة والجهالة والهمجية إلى العلم والحضارة والمدنية، واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة وعرفان. وقد أنجز الله لهم ما وعدهم في القرآن في قوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾[2] وصدق الله وعده.

*****

(١) سورة الفتح: ٢٤.
(٢) سورة النور: ٥٥.

# فصل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة قتال الكفار في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(١). فقوله "الذين يقاتلونكم" هو تعليق للحكم بكونهم يقاتلوننا.. فدل على أن قتالنا لمن لا يقاتلنا أنه عدوان، ويدل عليه قوله بعد هذا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(٢).

وقوله بعد ذلك: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(٣).

فأمر الله سبحانه بقتل من وجد من أهل القتال حيث وجد قائماً أو نائماً - وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(٤) وحتى لانتهاء الغاية - والفتنة: هي أن يفتن المسلم عن دينه أو أن يُمْنَع المسلمون عن نشر دينهم كما كان المشركون يفتنون من أسلم عن دينه ويمنعون المسلمين عن نشر دينهم، وهذا إنما يكون بحالة الاعتداء على المسلمين.. فيجب قتالهم حتى لا تكون فتنة.. ولم يقل سبحانه "وقاتلوهم حتى يسلموا".

وأما قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. فمن قال إنها منسوخة بقوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فقد غلط.. فإن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها وأما قوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم.. فإنما يعني بهم المحاربين الذين يقاتلوننا، فإننا نقاتلهم على أي حال وجدوا قائمين أو نائمين.. وهي عامة لكل من يحارب المسلمين في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

وأما قوله ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾.. فذكر - ابن الجوزي - في الاعتداء أربعة أقوال.. **أحدهما**: أنه قتل النساء والولدان - قاله ابن عباس ومجاهد...

---

(١) سورة البقرة: ١٩٠.
(٢) سورة البقرة: ١٩٤.
(٣) سورة البقرة: ١٩٢.
(٤) سورة البقرة: ١٩٣.

**والثاني**.. أن معناه "لا تقاتلوا من لم يقاتلوكم". قاله سعيد بن جبير وأبو العالية وابن زيد.

**الثالث**: إتيان ما نهوا عنه - قاله الحسن.

**الرابع**: ابتداؤهم بالقتل في الشهر الحرام.

ومثله قوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1].. فقد زعم بعضهم نسخها وهو خطأ أيضاً، وقد قال الجمهور من السلف والخلف إنها ليست مخصوصة ولا منسوخة، بل يقولون لا نكره أحداً على الإسلام وإنما نقاتل من حارينا، وإن أسلم عصم دمه وماله.. وإن لم يكن من أهل القتال لم نقتله ولم نكرهه على الإسلام.. فالذين نقاتلهم لحرابهم متى أدوا الجزية لم يجز قتالهم إذا كانوا أهل كتاب أو مجوس باتفاق العلماء.

وإن كانوا من مشركي الترك والهند ونحوهم.. فأكثر العلماء لا يجوزون قتالهم متى أدوا الجزية كأهل الكتاب.. وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والأوزاعي وأحمد ابن حنبل في إحدى الروايتين - وهي المنصوصة عنه.

ثم ذكر فتح مكة وأن رسول الله ﷺ منّ عليهم ولم يكرههم على الإسلام ولم يسأل أحداً منهم هل أسلمت أم لا.. بل أطلقهم بعد القدرة عليهم.. ولهذا سموا الطلقاء، وهم مسلمو الفتح ومنهم صفوان بن أمية ورجال آخرون شهدوا مع رسول الله ﷺ حنيناً وهم على شركهم ولم يكرههم على الإسلام حتى أسلموا من تلقاء أنفسهم.

ولا يقدر أحد قط أن ينقل عن رسول الله ﷺ أنه أكره أحداً على الإسلام لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه. ولا فائدة في إسلام مثل هذا.. انتهى كلامه.

وقال أيضاً "في السياسة الشرعية".. إن الله سبحانه أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه من صلاح الخلق.. والفتنة أكبر من القتل، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه".. انتهى كلامه.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

وأنني أعجب أشد العجب من العلماء المتمسكين بهذا القول الذي خالفوا به الحق والحقيقة، وخالفوا به نصوص القرآن الكريم، وخالفوا به نصوص مذهبهم وقول الجمهور، كأنهم بذلك يريدون نفع الدين والمسلمين من حيث يضرونهم، وهم في الحقيقة لا الدين نصروا ولا الباطل كسروا..

وقد رفع إلى العلامة ابن القيم - رحمه الله - خصومة وقعت بين رجلين أحدهما مسلم والآخر كافر، تناظرا في مسألة علمية واشتد نزاعهما فيها، وكأن النصراني لم يجد عند المسلم ما يشفيه ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه.. فسطا به المسلم ضرباً، وقال هذا جواب مسألتك.

عند ذلك قال النصراني صدق قومنا إذ يقولون إنما قام الإسلام بالسيف ولم يقم بالكتاب.. ثم تفرقا، هذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب.

فعمل العلامة ابن القيم - رحمه الله - عمله في الحكم بينهما، فقال: لقد شمر المجيب عن ساعد العزم، ونهض على ساق الجد والحزم، ولم يقل مقالة العجزة الجهال.. إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف وإخلاد إلى الضعف.. ومجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة عليهم وإزاحة للعذر. "ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة".

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابه (هداية الحيارى) ص٢٢ "إن أكثر الأمم دخلوا في الإسلام طوعاً ورغبة واختياراً لا إكراهاً ولا اضطراراً، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى أهل الأرض وهم خمسة أصناف طبقوا الأرض.. يهود ونصارى ومجوس وصابئة ومشركون. وهذه الأصناف هي التي كانت قد استولت على الدنيا من مشارقها إلى مغاربها.

فأما اليهود فأكثر ما كانوا باليمن وخيبر والمدينة وما حولها وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارى، وكان منهم بأرض العرب فرقة، وأعز ما كانوا بالمدينة وخيبر، وكان الله سبحانه قد قطّعهم في الأرض أمماً وسلبهم الملك والعز.

وأما النصارى، فكانوا أطبقوا الأرض فكانت الشام كلها نصارى وأرض المغرب كان الغالب عليهم النصارى، وكذلك أرض مصر والحبشة والجزيرة وأرض نجران وغيرها من البلاد.

وأما المجوس فهم أهل مملكة فارس وما اتصل بها، وأما الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم.. وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها.

وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة.. ودين الحنفاء لا يعرف فيهم البتة.

وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان.. كما قال ابن عباس وغيره. الأديان ستة: واحد للرحمن - وخمسة للشيطان، وهذه الأديان الستة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

فلما بعث الله رسوله استجاب له ولخلفائه من بعده أكثر أهل هذه الأديان طوعاً واختياراً ولم يكره أحداً على الدين، إنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٢). وهذا نفي في معنى النهي.. أي لا تكرهوا أحداً على الدين - نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين.. فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام، والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر وهذا ظاهر على قول كل من يُجَوِّزُ أخذ الجزية من جميع الكفار.. فلا

(١) سورة الحج: ١٧.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٦.

يكرهون على الدخول في الدين - بل إما إن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

وكل من تأمل سيرة النبي ﷺ.. تبين له انه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله. وأما من هادنه فإنه لم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته ولم ينقض عهده، بل أمره الله أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له.. كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[1].. ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم.. فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم.. فمنّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما عاهد قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بالقتال حتى بدؤوا بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم وكانوا يغزونه قبل ذلك.. كما قصدوه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق .

والمقصود أنه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً.. فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً، فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية ثم دخلوا في دين الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، فلم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف، بل أسلموا في حال ضعف المسلمين وكثرة أعدائهم ومحاربة أهل الأرض لهم من غير سوط ولا نوط - بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نفقتهم بالمال والبدن، فكان أحدهم يعادي أباه وأمه وأهل بيته وعشيرته ويخرج عن الدنيا رغبة في الإسلام لا لرئاسة ولا لمال - بل ينخلع من الرئاسة والمال ويتحمل أذى الكفار من ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهم ولا يصرفه ذلك عن دينه.

وهؤلاء نصارى الشام كانوا ملء الشام ثم صاروا مسلمين إلا النادر وكذلك المجوس.. كانت أمة لا يحصي عددهم إلا الله فأطبقوا على الإسلام ولم يتخلف

---

(١) سورة التوبة: ٧.

منهم إلا النادر وصارت بلادهم بلاد إسلام، وصار من لم يسلم منهم تحت الجزية والذلة، فرقعة الإسلام إنما انتشرت في الشرق والغرب بإسلام أكثر الطوائف حيث دخلوا في دين الله أفواجاً حتى صار الكفار معهم تحت الذلة والصغار، وقد تبين أن الذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين أكثر من الذين لم يسلموا، وأنه إنما بقي منهم على الكفر أقل القليل". انتهى كلام العلامة ابن القيم - رحمه الله -.

إنه بمقتضى التأمل لما سبق من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم يتبين بطريق الوضوح أن سبب الجهاد المشروع هو الدفاع عن الدين لمن أراد كبته وعدم نشره وفتنة من آمن به، وكفى أنه قول شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم كما سبق بيانه، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنه قول الجمهور كمالك وأحمد وأبي حنيفة.

فقول بعض العلماء إن الجهاد المشروع هو قتال الكفار حتى يسلموا، فهذا قول ضعيف بمقتضى الدليل والبرهان.

وقد صار هذا القول من أكبر مطاعن النصارى على الدين وعلى المسلمين. وقد استغله جماعة القسيسين والمبشرين بحيث يلقنونه الطلاب وينشرونه لدى العامة قائلين إن الإسلام دين حرب وإكراه، وإنه إنما انتشر بالسيف بحيث يوقفون الرجل ويرفعون السيف فوق رأسه ويقولون له إما أن تسلم وإلا قتلناك، وإن لم يسلم قتلوه. يريدون بهذا تنفير الناس عن الدين واحتقاب العداوة للمؤمنين.

وكنا في حالة ابتدائنا لطلب العلم نعتقد هذا الاعتقاد حتى توسعنا في العلم والمعرفة بتفسير القرآن وحقيقة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في غزواته ومعاملاته للكفار - المحاربين منهم والمسالمين.

فعند ذلك تبدل رأينا وتحققنا بأن القتال في الإسلام، إنما شرع لدفع العدوان عن الدين وكف أذى المعتدين على المؤمنين، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين.

إن الكاتب - رحمه الله - أشار في كتابه بأنه نظر في عشرين بحثاً من عشرين كتاباً.. فلم يجد فيها ما يشفيه، وعرف من غضونها أن الدين فقد ما يجب

أن لا يفقده. فلو نظر في كتابنا "الجهاد المشروع في الإسلام" بفكر حاضر وقلب واع لوجد فيه ما يشفيه.

إن من شرط الانتفاع بالبحوث النافعة كونه يتلقاها بصدر رحب وعدم نفرة وكراهية لها، أما إذا نظر إليها بكراهية ونفرة فإنه لا يكاد يراها ولا يسمعها كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[1]. لكون الإنسان إذا اشتدت كراهيته للشيء لم يكد يراه ولا يسمعه وتشتد نفرته منه.

وإن من طبيعة أكثر البشر كون أحدهم إذا جهل شيئاً عابه، وبادر بإنكاره، وذلك لا يغنيه من الحق شيئاً، فكم من لائم ملوم.

**وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم**

والله سبحانه قد ضمن للحق البقاء، وأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وأهلاً وسهلاً بمن يرد الباطل في وجه قائله، فإن الباطل لا حرمة له ولا كرامة، فمتى اتضح الباطل الذي لا محمل له من الحق ولا خلاف في بطلانه فإن رده واجب.

أما المسألة الخلافية كهذه وأمثالها مما يجعل بعض الناس رأيه ميزاناً لها يزن به أقوال الناس، ثم يتحامل بطريق التهالك وعدم التمالك على من خالف رأيه فيها ويحكم ببطلان قوله وعمله واعتقاده. فلا شك أن هذا حكم عائل وليس بعادل، وطريقة سقيمة وليست بسليمة، ولعل المخالفين له أسعد بالصواب منه.

*****

(١) سورة هود: ٢٠.

# التفاوُت بين الكفّار والمحَاربين وبَين الكفّار والمسَالمين للمُسلمين

إن الله سبحانه حكم عدل، يعطي كل ذي حق حقه غير مبخوس ولا منقوص، ولا يظلم ربك أحداً، والاختلاف بين الناس واقع ما له من دافع، فمنهم المسلم، ومنهم الكافر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١). ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(٢). وقد فصل القرآن الكريم الحكم بين الفريقين. فأمر بقتال المحاربين حيث وجدوا سواء كانوا قائمين أو نائمين بطريق الهجوم أو الدفاع.

كما أمرنا بأن يعامل المسالمون بما يستحقون من العطف والبر والصلة والإحسان، وأن الله سبحانه يبيح ذلك ولا ينهى عنه. يقول الله سبحانه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

فأمر سبحانه ببر المسالمين - والبر هو من أجمع أفعال الخير وضده الفجور.. وهو التوسع في أعمال الشرور.. ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾(٤).

وقد سأل الصحابة عن الصدقة على أقاربهم من المشركين.. فأنزل الله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٥). فأُمروا بالصدقة عليهم جزاء على مسالمتهم للمسلمين وعدم تعرضهم لقتالهم أو الطعن في دينهم.

---

(١) سورة التغابن: ٢.
(٢) سورة هود: ١١٨-١١٩.
(٣) سورة الممتحنة: ٨.
(٤) سورة الإنفطار: ١٣-١٤.
(٥) سورة البقرة: ٢٧٢.

نظيره قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(١). وهذه الآية هي من سورة النساء وهي مدنية.. كما أن الآية الأولى من سورة الممتحنة وإنما نزلت عام حجة الوداع.. فلا نسخ في كلتيهما ولا تخصيص، ولا تقييد، بل الحكم بمدلولهما ثابت معمول به إلى يوم القيامة.

ثم قال في شأن المحاربين: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢). فهذه من سورة الممتحنة.. نزلت يوم فتح مكة بسبب الكتاب الذي كتبه حاطب بن أبي بلتعة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وصفة الكتاب على ما ذكره يحيى بن سلام في تفسيره أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب لقريش: (أما بعد - يا معشر قريش إن رسول الله قد جاءكم بجيش كالسيل يختبئ بالنهار ويسير بالليل.. فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم والسلام).

فنزل الوحي بخبر الكتاب بما يتضمن معاداتهم وعدم موالاتهم لاعتبار أنهم محاربون لله ورسوله وعباده المؤمنين. نظيره - قوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾(٣) - أي حجة بينة تبيح قتلهم وقتالهم.. وضدهم المسالمون حيث قال في حقهم: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(٤)- يعني إلى قتالهم.

فالآيات المطلقة التي تأمر بقتال الكفار تحمل على هذه الآيات المقيدة لجواز حمل المطلق على المقيد لكون الكافر المسالم ما مضرة كفره إلا على نفسه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته "السياسة الشرعية":-

"إن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة النساء: ٩٠.
(٢) سورة الممتحنة: ٩.
(٣) سورة النساء: ٩١.
(٤) سورة النساء٩٠.
(٥) سورة البقرة: ١٩٠.

وذلك أن الله سبحانه - أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه من صلاح الخلق كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[1].. أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار للمسلمين من الشر والفساد ما هو أكبر منه.

فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه - يعني.. فلا يقاتل. (انتهى).

أما الكافر المحارب فإن مضرة كفره تتعدى على الناس في دينهم وأبدانهم، فهذا حكم العدل من الله بين عباده، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

يؤيده أن أكثر أهل الأرض كفار كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: "**ما أنتم في الأمم المكذبة للرسل إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود**".. وهذا يؤيد ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم من أن الإسلام يسالم من يسالمه وما ورد في القرآن من الشدة والغلظة على الكفار وكون المؤمنين أشداء على الكفار رحماء بينهم، فهذه وأمثالها محمولة على حالة قتال المؤمنين للمحاربين كقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[4]. فأمر الله عباده المؤمنين متى لقوا أعداءهم المحاربين بأن يضربوهم الضربة القاسية التي تثخنهم وتكون عبرة لأمثالهم، ولكل مقام مقال. والنبي ﷺ كان يعامل الكفار المقدور عليهم غير معاملته للمحاربين منهم.

ففي قوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.
(٢) سورة يوسف: ١٠٣.
(٣) سورة الأنفال: ٥٧.
(٤) سورة محمد: ٤.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٦.
(٦) سورة يونس: ٩٩.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾(١). وهذا دليل على صحة ما ذكرناه.

**الجهاد بالحجة والبيان والسنة والقرآن قبل الجهاد بالسيف والسنان:**

إن دين الإسلام قام واستقام على الكتاب الهادي والسيف الناصر، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

إن الأمة الإسلامية مكلفة من قبل الله بنشر هذا الدين والتبشير به جميع خلقه، وإزالة ما غشيهم من الظلم والاضطهاد والفتنة فيه وإزالة معابد الشرك، والدعوة إلى الله بالحجة والبيان والسنة والقرآن، وإن تعذر فبالسيف والسنان.

فوظيفة الكتاب أي القرآن هو إبلاغ الناس بما أنزل إليهم من ربهم ودعوتهم إلى دين الله الذي فيه صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتي هي أحسن.

وهذا هو حقيقة ما رسمه القرآن لأهله في أدب البحث والمناظرة مع المخالفين لهم في الدين. ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(٣).

قال مجاهد "الذين ظلموا منهم" هم من قاتل المسلمين ولم يعطهم الجزية، وفي رواية عنه قال: الذين ظلموا منهم أهل الحرب ممن لا عهد لهم، فالمجادلة لهم تكون بالسيف، وفي رواية عنه قال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ولم يعط الجزية".

فوظيفة السيف هي كف العدوان عن الدين وعن المؤمنين. إذ لابد للدين ونشره والدعوة إليه من قوة تؤيده وتحميه وتعين على تنفيذه.

---

(١) سورة الشورى: ٤٨.
(٢) سورة النحل: ١٢٥.
(٣) سورة العنكبوت: ٤٦.

وعن أنس - أن النبي ﷺ.. قال "**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**" رواه أحمد والنسائي وصححه الحاكم.

وقد شرط العلماء في الجهاد المشروع أن تتقدمه الدعوة في حق من لم تبلغه على الوجه المطلوب بخلاف المحاربين المعاندين، فإن جدالهم بالجلاد حتى يذعنوا لتعاليم الإسلام، وهو آخر ما يعامل به الكفار المعاندون على حد ما قيل:

**فيا أيُّها النّوام عن ريق الهدى وقد جاءكم من ديمه بعدُ وابل**

**هو الحق إن تستيقظوا فيه تغنموا وإن تغفلوا فالسيف ليس بغافل**

**وما هو إلا الوحي أوحد مرهف يقيم ظباه اخدعي كل مائل**

**فهذا دواء الداء من كل عالم وذاك دواء الداء من كل جاهل**

ومتى أوجبت الحاجة والمصلحة الجهاد بالقتال فإنه يجب قبله إعداد القوة المماثلة أو المقاربة لقوة العدو مع الإيمان بالله عز وجل.

يقول الله سبحانه: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾[1].

فنص بالذكر على الخيل لأنها مراكب المقاتلين الشجعان في ذلك الزمان، ولكل زمان قوة تناسبه.. فإنما يرمى الجندل بالجندل والحديد بالحديد.

وفسر النبي ﷺ القوة فقال:- "**ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي**" لكنه لم يفسر المرمي به، وليست القوة مقصورة عليه، وقد حارب النبي ﷺ بالمنجنيق، ونصب الدبابة على أهل الطائف.

ومفهوم الآية أن الله سبحانه أمر المسلمين بأن يستعدوا لأعدائهم بما يستطيعونه من القوة. ولفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوون به على حرب عدوهم، ويشمل كل ما هو آلة للحرب من أسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها وأشكالها بحسب الأزمنة والأمكنة.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

والوسائل لها أحكام المقاصد، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ لهذا يجب تعلم ما يفيد المسلمين في إصلاح حالهم في حالة حربهم لعدوهم في إنشاء معاهد لتعليم الجنود وتدريبهم فنون القتال واستعمال آلات الحرب حسبما يستجده الزمان من الصنائع إذ هذا من أسباب القوة التي يتقى بها وقوع البلاء.

كما قيل في الحجاج الثقفي:

**إذا سمع الحجاج رزء كتيبة أعد لها قبل القدوم قراها**

**إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى داءها فشفاها**

إنه متى تعذر سبيل الجهاد بالقتال فإنه يجب الجهاد بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد فتح الله للمسلمين كثيراً من البلدان بالدعوة إلى الله بدون قتال كبلدان اليمن على كثرتها وتعدد مدنها، فإن المسلمين فتحوها بمجرد الدعوة، وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري، ومثله بلدان البحرين.. فقد فتحت بدون قتال، وأرسل النبي ﷺ إليها أبا العلاء بن الحضرمي، ثم أرسل إليها أبا عبيدة بن الجراح، ومثله بلدان عمان، فقد فتحها الإسلام بدون قتال، فكل هذه البلدان دخل فيها الإسلام زمن النبي ﷺ بمجرد الدعوة والإبلاغ بدون قتال، ثم سارت الفتوح على نحو ذلك، ففتح العلم والبيان والسنة والقرآن من البلدان ما لم يصل إليها السيف والسنان.

وقد دخل المهاجرون والأنصار في الإسلام بمجرد الدعوة بدون قتال لكون الجهاد هو بذل الجهد والطاقة في الدعوة إلى الله بإعلاء كلمته ونشر دينه، وهو قولي وفعلي. يكون باللسان والحجة والقرآن، ويكون بالقوة والسنان.

وأكثر الأنبياء لم يفرض عليهم القتال، ولكل قوم حالة تناسب دعوتهم بالقوة أو بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكان النبي ﷺ في حالة عجزه وعدم قدرته على المقاومة من أجل قلة عدد قومه وضعفهم مأموراً بكف اليد عن القتال.. وأن يجاهد الكفار بالقرآن فيدعوهم

ويعظهم كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(١).

وكما قال سبحانه: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾(٢).

وكان النبي ﷺ ينصب لحسان منبراً ويقول: "**اهجهم يا حسان.. فإن شعرك أشد عليهم من رشق النبل**".

فمتى كان هجو المشركين بالشعر مشروعاً، كما سبق، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار والمشركين وأهل الكتاب؟ فجهاد الكفار باللسان والحجة والبيان ما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - في الجواب الصحيح.. إنه من المعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره بالسيف والسنان.. فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختياراً بغير سيف.. لما بان لهم من الآيات والبينات والبراهين والمعجزات من أن دينه الحق. (انتهى).

ثم قال الكاتب رحمه الله: (إن حروب الرسول ﷺ كان هو البادئ فيها بالقتال لنشر هذا الدين، ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنه لم يسبق منهم ذلك إلا في نادر الأحوال). انتهى

فالجواب أن هذا الخطاب وقع منه على سبيل الخطأ حيث صده الهوى عن رؤية الهدى، ويغفر الله له.

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

(١) سورة الفرقان: ٥١-٥٢.
(٢) سورة النساء: ٦٣.

رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1].

فبسط اليد بالسوء هو ضربهم وشجاجهم وجروحهم وأنواع الأذى منهم للصحابة، وبسط ألسنتهم هو بالشتم واللعن والسخرية وغير ذلك من أنواع الأذية.

وحسبك أن الصحابة رجالهم ونساؤهم فارقوا وطنهم العزيز عليهم إلى الحبشة فراراً بدينهم وأبدانهم عن التعذيب والافتتان. فالمشركون هم المحاربون لله ورسوله - يقول الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2].. فأمر سبحانه عباده المؤمنين بأن يقاتلوا كل من تصدى لقتالهم حتى لو تتصدى المرأة لقتال المسلمين لاستحقت أن تقتل وتُقَاتَل كالرجال ثم قال "ولا تعتدوا". وفُسِّر الاعتداء بقتل النساء والصبيان والرهبان والعميان، وفسر بإحراق الشجر وقتل الحيوان. وفسره بعضهم بقتال من لا يقاتل المسلمين.

ثم قال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾"ولم يقل قاتلوا المشركين حتى يسلموا بل قال: "كما يقاتلونكم كافة"[4]. وهذا فيه المقاضاة بالمثل - وهو أن المسلمين يقاتلون كل من تصدى لقتالهم فيقتلون بطريق الطلب أي الهجوم أو الدفاع سواء وجدوا قائمين أو نائمين.. يقول الله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ..﴾[5] وجزاء سيئة سيئة مثلها، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[6]، وهذا هو غاية ما يبتغي المشركون من الرسول وأصحابه.

---

(١) سورة الممتحنة: ١-٢.
(٢) سورة البقرة: ١٩٠.
(٣) سورة البقرة: ١٩١-١٩٢.
(٤) سورة التوبة: ٣٦.
(٥) سورة البقرة: ١٩٤.
(٦) سورة البقرة: ٢١٧.

ثم قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ - بفتح التاء - بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1]. فأثبت سبحانه بدء المشركين بالقتال للنبي ﷺ وأصحابه.

نظير قوله سبحانه: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[2]. وهذه شهادة من الله سبحانه في حقيقة بداءتهم بالاعتداء والقتال على رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد قيل الشر بالشر والبادئ أظلم.

فأثبت سبحانه في هذه الآيات بداءة المشركين بالقتال للنبي ﷺ وأصحابه وأنهم لم يألوا جهداً في الأذى والاعتداء وتعذيب كل من آمن بالله ورسوله. والمؤمنون متكافلون كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله. يجب أن يدافعوا عن أفرادهم كما يدافعون عن أنفسهم وأولادهم وبلادهم.

فدعوى الكاتب بأن الرسول الكريم هو البادئ بالقتال لنشر هذا الدين. فإن هذا يعد من الخطأ المبين. وقد استباح الكاتب القول به لنصرة رأيه وإعلاء كلمته ليثبت بذلك ما ذهب إليه من أن الجهاد الشرعي هو قتال الكفار حتى يسلموا، لا فرق في ذلك بين الكفار المسالمين والكفار المحاربين، وهذا القول وهذا الاعتقاد هو أكبر ما يشنع به النصارى على المسلمين بحيث إن المبشرين والقسيسين يلقنون الطلاب هذا القول ويقولون بأن المسلمين يوقفون الرجل على حرف السيف ويقولون له إما أن تسلم وإلا قتلناك. وإن لم يسلم قتلوه!.

ونقول.. ما يكون لنا أن نتكلم بهذا.. سبحانك - هذا بهتان عظيم.. فإن الإسلام هداية اختيارية لا إكراه فيها ولا إجبار.. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً.

---

(١) سورة الحج: ٣٩-٤٠.

(٢) سورة التوبة: ١٣-١٥.

يقول الله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١). وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وهذه آيات محكمات لا نسخ فيها ولا تخصيص ولا تقييد، وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة التي هي أحب البقاء إليه خائفاً متخفياً حين تمالأوا على قتله بصورة يضيع بها دمه وذلك بأن يعطوا كل رجل سيفاً فيضربونه جميعاً بسيوفهم فأطلع الله نبيه على ذلك. وأذن له بالهجرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٣)- وكان يقول: "والله إنك من أحب بلاد الله إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت".

يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾(٤) أي من أجل إيمانكم بربكم. ومثله قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٥).

فأثبت سبحانه شدة عداوتهم للمسلمين حيث أخرجوهم من بلادهم وأموالهم، وأنه يجب جهادهم أينما ثقفوا، وتحرم موالاتهم ببرهم.

بخلاف من لم يقاتل المسلمين ولا يكون مع قوم يقاتلونهم فإنه يباح برهم والإحسان إليهم لقول الله سبحانه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٦). وهذه آيات محكمات لا نسخ فيها ولا تخصيص ولا تقييد، وهي إنما نزلت عام الفتح.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.
(٢) سورة يونس: ٩٩.
(٣) سورة الأنفال: ٣٠.
(٤) سورة الممتحنة: ١.
(٥) سورة الحشر: ٨.
(٦) سورة الممتحنة: ٨-٩.

# فصل

**تفسير حديث: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة".**

إن أكبر ما يشكل على الناس في هذه المسألة هو قوله ﷺ: **"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل".** (رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر).

وقد يسبق فهم بعض الناس إلى أن هؤلاء الناس الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم حتى يقيموا هذه الأركان هم جميع الناس وهو ليس بصحيح، فإنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه قاتل جميع الناس على إقامة هذه الأركان.

فإن الناس في هذا الحديث اسم جنس لا يراد به كل فرد ولا عموم الناس، نظيره قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾[1]. فهؤلاء الناس القائلون إن الناس قد جمعوا لكم هم فرد أو أفراد من الناس، كما أن الناس الذين أجمعوا على الرجوع إلى الرسول وأصحابه هم: أبو سفيان ومن معه، وهم أفراد من الناس وليسوا كل الناس، فيمتنع أن يكون الرسول مأموراً بقتال جميع الناس حتى يقروا بالشهادتين ويقيموا الصلوات الخمس ويؤتوا الزكاة.

وإنما أراد بالناس مشركي العرب الذين لا يُقَرُّون في الجزيرة إلا بالإسلام لكون الجزيرة لا يقر فيها إلا مسلم كما في صحيح البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً"**

وروى الإمام أحمد وأبو عبيد عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٣.

آخر ما تكلم به رسول الله أنه قال: "**أخرجوا يهود الحجاز، ونصارى نجران من جزيرة العرب**".

وجزيرة العرب هي الحجاز ونجد بلا خلاف. وفي غيرها الخلاف المشهور، وقال في فتح الباري - جزيرة العرب التي يمنع المشركون من سكناها هي مكة والمدينة واليمامة وما والاها.

وقد دل القرآن على مفهوم ما دل عليه هذا الحديث، فقال سبحانه: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

فالمشركون هنا هم مشركو العرب الذين كانوا حرباً لرسول الله ﷺ ولأصحابه.. لأن ولاءهم ومحبتهم ونصرتهم لقريش على حرب الرسول ﷺ وأصحابه وقد شاركوا قريشاً في الهجوم على خزاعة وهي داخلة في عقد الرسول ﷺ وعهده ثم شاركوهم يوم الأحزاب أي يوم الخندق، وشاركوا هوازن يوم حنين.

ولأن أكثر الناس من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس لا يطالبون بالتزام هذه الأركان، وإنما يُكتفى منهم بالجزية في سبيل حمايتهم، فهؤلاء الناس المذكورون في الحديث هم مشركو العرب في الجزيرة، وقد أنزل الله فيهم صدر سورة براءة وفيها: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾[2] ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ**﴾[3]. ثم قال في حنقهم وما يحتقبونه من العداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه - فقال: ﴿**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ إلى قوله ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا**

(١) سورة التوبة: ٥.
(٢) سورة التوبة: ٣.
(٣) سورة التوبة: ٤.

الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾- ثم قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[1].

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] فذكر سبحانه في هذه الآيات صريح الاعتداء بطريق الابتداء من المشركين على المؤمنين وكونهم لا يرقبون في المؤمنين إلاً ولا ذمة أي لا عهداً ولا قرابة، وكونهم بدءوا المؤمنين بالقتال، وأنهم متى طعنوا في الدين فإنهم يكونون مستوجبين للقتال بطريق ابتدائهم بالاعتداء وبطريق طعنهم في الدين والواجب على المسلمين حماية أنفسهم وحماية دين الله الذين يقاتلون في سبيله حتى لا يتعرض له أحد بالطعن فيه وحتى لا يفتن من آمن به. يقول الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3]. وقال في سورة البقرة: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[4]. أي أن فتنة المشركين للمؤمنين في دينهم هو أضر وأعظم وأكبر عند الله من قتل المؤمنين لهم لكون الفتنة أكبر من القتل. ثم قال: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[5]. فهذا هو غاية ما يبتغون.

فجهاد المؤمنين لهم هو جهاد دفاع لشرهم لأن شريعة الدين مبنية على حماية الدين والأنفس والأموال والأعراض والعقول.

ثم احتج الكاتب بما رواه مسلم عن بريدة (**أن النبي ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: " اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من**

(١) سورة التوبة: ٨-١٢ .
(٢) سورة التوبة: ١٣.
(٣) سورة البقرة: ١٩٣.
(٤) سورة البقرة: ٢١٧.
(٥) سورة البقرة: ٢١٧.

**الكفار فادعهم إلى ثلاث خصال: أدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. فإن أبوا فادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين.. فإن أبوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله ورسوله.. فإن أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم).**

ففي هذا الحديث بيان مراتب الدعوة إلى الله وأنها تكون بالأسهل فالأسهل لقول الله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]. فبدأ في هذا الحديث بدعوتهم إلى دين الإسلام، فإن هم أبوا دعاهم إلى النقلة إلى دار المهاجرين ليختلطوا بالمسلمين ويسمعوا القرآن ويرون كيفية الصلاة والمصلين مع بقائهم على كفرهم لأن هذا أعون على هدايتهم وإسلامهم، ولم يقل إن هم أبوا الإسلام فقاتلهم. ثم ادعهم إلى أن يكونوا كأعراب المسلمين فإن هم أبوا فاسألهم الجزية.

*****

(١) سورة النحل: ١٢٥.

# تحريم تحريف القرآن بصَرفه إلى غير المعنى المراد منه

قال الكاتب.. (إن الآيات القرآنية الواردة في القتال لا يجوز صرفها إلى غير المعنى المراد منها ولا إخضاعها تبعاً لما يعتقده الإنسان من نفسه ولا لتطور الأزمنة وتغير الأحوال عند الأمم..) (انتهى).

فالجواب.. أن هذا الكلام حسن صحيح نؤمن به ونعتقده، ونرجو أن نسير على منهجه.

لكن الكاتب قد استباح مخالفته بحالة غير خافية على أحد حيث حاول صرف الآيات الظاهرة إلى غير المعنى المراد منها في سبيل نصر رأيه وإعلاء كلمته.

من ذلك أنه استدل بقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1]. فنقل عن ابن كثير أضعف ما ذكره في التفسير قائلاً. (قد ذهبت طائفة كثيرة من العلماء إلى أن هذه الآية محمولة على أهل الكتاب ومن دخل دينهم قبل النسخ والتبديل.. إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون.. هي منسوخة بآية السيف..) انتهى.

فالجواب أن نقول: سبحان الله ما أسرع ما نسي هذا الكاتب، فأين ما قاله من أنه لا نسخ في القرآن.. ولا تخصيص ولا تقييد، وأنه يجب حمل الآيات على المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن؟.. وكيف عدل عن أقوال العلماء التي ساقها ابن كثير في تفسير هذه الآية وبيان سببها؟ وكيف استباح الطعن في هذه الآية المحكمة بدعوى نسخها لعلة اعتراضها في طريقه؟.

فحاول عزلها عن الاحتجاج بها حتى يتم له صحة ما يدعيه من وجوب الإكراه على الدين خلاف ما حكم الله به في كتابه المبين. وكيف نقل عن ابن كثير

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

أضعف ما ذكره في التفسير؟ وكان من واجب العدل والإنصاف أن يذكر كلام ابن كثير كله أو يتركه كله.. لكنه استباح الإعراض عن القول الصحيح في الآية ليثبت بذلك صحة ما يدعيه.. وهذا غاية في تعصبه لرأيه وعدم إنصافه وعدله. وإن مما ندرك على بعض المشايخ الكرام أو بعض الإخوان كون أحدهم إذا ذكر عنده كتاب أو كلام صادر من بعض العلماء المتأخرين فنراه يرميه بما ينقصه من الزراية وعدم الدراية ويقول: هذا ليس بشيء من أجل مخالفته لرأيه، وربما استطال بعضهم إلى كتب العلماء المتقدمين المشهورين فوسمها بالبطلان بدعوى نسبتها إلى غير مؤلفيها ليثبت في قلوب العوام وضعفة العلوم والأفهام عدم الثقة بها كي يعزلها عن موضوع الاحتجاج بها من أجل مخالفتها لرأيه واعتقاده، فدع عنا ذكر فلان أو كتاب فلان ولنرجع الآن إلى محكم القرآن حيث طرق الكاتب تفسير قوله سبحانه: "لا إكراه في الدين" وهي آية محكمة، وتفسيرها يعرف من تلاوتها إذ هي من التفسير الذي لا يعذر أحد بجهله. ولنذكر الآن سببها الذي هو عين تفسيرها.

فقد روى أبو داود في سننه والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن جرير عن ابن عباس في تفسير الآية.. قال:- كانت المرأة من الأنصار مقلاة - أي لا يعيش لها ولد.. فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده.. فلما أُجلِيت بنو النضير - كان فيهم من أولاد الأنصار.. فقالوا لا ندع أبناءنا.. فأنزل الله "لا إكراه في الدين"..

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس - قال: نزلت (لا إكراه في الدين) في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً.. فقال للنبي ﷺ.. ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله الآية.. وفي بعض التفاسير أنه حاول إكراههما.. فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟.

ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية وتهويد أولادهن ليعيشوا.. وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا إكراه من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب على الإسلام.. فنزلت الآية.. فكانت فصل ما بينهم.. وفي رواية له عن

سعيد ابن جبير.. أن النبي ﷺ قال عندما نزلت: "**قد خيَّر الله أصحابكم.. فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم**". لأن هؤلاء الأولاد قد تربوا في صغرهم منذ نشأتهم عند اليهود فاعتنقوا دينهم، واختاروا عقيدتهم على الإسلام، فصاروا منهم وانفصلوا عن نسب آبائهم لكون دين الإسلام متعلقاً بنفس الشخص لا بنسبه.. ولهذا تنقطع الموالاة والنسب والإرث بين الكافر وبين أبيه المسلم.. فلا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم.. وليس هذا كالمرتد فإن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، وقد دخل أناس من العرب في النصرانية فصاروا نصارى كبني تغلب مثلاً، كما دخل أناس في اليهودية فصاروا يهوداً.

ثم استدل الكاتب - بقول الشوكاني في تفسير هذه الآية.. وأنها على أقوال:-

**الأول**: أنها منسوخة لأن الرسول ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[1]. (انتهى).

ونقول.. إن الشيخ الشوكاني هو كسائر العلماء الذين يؤخذ من أقوالهم ويترك.. فإن قوله بنسخ هذه الآية لا صحة له، بل هي محكمة غير منسوخة عند جمهور العلماء وسببها معروف، كما ذكرنا من رواية المحدثين - كأبي داود والنسائي وابن حبان، وابن جرير - عن ابن عباس - كلهم يقولون - إنها محكمة غير منسوخة.. كما أن استدلال الشوكاني بالآية الناسخة لها غير صحيح وهي قوله: "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين".. فإن الجهاد يشمل الدعوة بالقرآن والسيف والسنان. وحمل هذه الآية على الجهاد بالدعوة والقرآن أولى من حملها على السيف والسنان.

فإن رسول الله ﷺ لم يقاتل المنافقين، ولما استُئْذِنَ في قتل رجل منهم قال: "**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**" نظيره قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴿٥١﴾ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾[2] - أي جاهدهم بالقرآن.

---

(١) سورة التوبة: ٧٣.

(٢) سورة الفرقان: ٥١-٥٢.

ومثله استدلال الشوكاني - بأن رسول الله ﷺ، قد أكره العرب على الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام.. وهذا الاستدلال باطل أيضاً.. فإن العرب لا يزالون يقاتلون رسول الله ﷺ.. لكون ولائهم ونصرتهم مع قريش على حربه، فهم الأعداء المحاربون للرسول وأصحابه.

*****

# القتال في سبيل الله

إن القتال في سبيل الله مشروع بالكتاب والسنة والإجماع. يقول الله سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٢).

وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

وفي البخاري ومسلم - عن أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ - فقيل له: الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليرى مكانه. أي ذلك في سبيل الله؟، فقال: "**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**".

فلسنا نقول بإنكار هذا القتال المشروع في الإسلام، وإنما نقول به في الأمر المقصود منه، ويتمحص في أمور:

**أحدها:** قتال المحاربين للمسلمين الموصوفين بقوله:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(٥). وقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة النساء: ٧٤.
(٢) سورة النساء: ٧٦.
(٣) سورة النساء: ٨٤.
(٤) سورة التوبة: ١٢٣.
(٥) سورة البقرة: ١٩٠-١٩١.
(٦) سورة الممتحنة: ٢.

فهؤلاء يقاتلون حيث وجدوا قائمين أو نائمين بطريق الهجوم أو الطلب دفعاً لشرهم حتى يكفُّوا عن عدوانهم وفتنتهم. كجهاد اليهود في هذا الزمان فهم محاربون للإسلام والمسلمين.

**الثاني:** قتال من يمنع دخول الإسلام ودعاته إلى بلده؛ بحيث يغلق أبواب البلد دونهم، ويبادر بالقتال لصدهم وصد ما يدعون إليه، أو يفتن من أسلم لمحاولة ردته عن دينه. فيعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين؛ لحيلولتهم بمنعهم عن استماع الحق واتباعه الذي فيه سعادتهم وسعادة البشر كلهم في دنياهم وآخرتهم.

**الثالث:** قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون، والجزية هي قدر يسير شرعت في مقابلة حمايتهم، فمتى عجز المسلمون عن حمايتهم سقطت جزيتهم، كما رد الصحابة على أهل الكتاب جزيتهم حين أحسوا بعجزهم عن حمايتهم يوم اليرموك، فهؤلاء هم المستوجبون للقتال.

وحكم القتال في سبيل الله باق إلى يوم القيامة وإن لم نسمع به إلا في الحروب الصليبية التي قام بالجهاد فيها صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس حين غزا التتار بلدان الشام والعراق، ومن بعد ذلك ظهور الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - حيث نشأ في القرن الثاني عشر وكان مولده عام ألف ومائة وخمس عشرة سنة وكان "نجد" في ذلك الزمان مملوء بالشرك وعبادة الأوثان.. لكل قوم صنم يعبدونه.

فجاهد الناس بالحجة والبيان والسنة والقرآن.. فأنشأ الكتب الإسلامية التي تدعو إلى عبادة الله وحده وتنهى عن عبادة ما سواه مثل "كتاب التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد"، و "كشف الشبهات" و "ثلاثة الأصول" و "كتاب فضل الإسلام" و "كتاب أصول الإيمان" وغير ذلك من الكتب العديدة والرسائل المفيدة التي عم الانتفاع بها جميع الناس، وانتفع بها العام والخاص، وصارت كتبه بمثابة القواعد في الأصول والعقائد.

فهو المجاهد الأكبر في زمانه وفي الأزمنة من بعده.. فهو يجاهد الناس بالعلم والبيان. كما أن الإمام محمد بن سعود وابنه عبد العزيز بن محمد آل سعود - رحمهما الله - قد تصدوا لجهاد الشرك والمشركين بالسيف والسنان حتى طهر الله "نجداً" بآثار سعيهم وجهادهم من الشرك وعبادة الأوثان، وجمع شملهم، ووحدهم على التوحيد وعبادة الله وحده، وصار كل متمسك بالعقيدة الدينية السلفية يلقب بالوهابي كما قيل:

إن كان تابع أحمد متوهباً  فأنا المقر بأنني وهابي

ثم وقع في هذا الزمان قتال المسلمين مع اليهود المحاربين، وهو من الجهاد في سبيل الله لمن أخلص نيته وعمله..

ثم إن المطالبة بقتال من يستحق القتال تتمشى على حسب القدرة والاستطاعة فلا يجوز الدخول إلا على حسب رجحان القدرة عليه بالقوة المماثلة أو المقاربة لقوة العدو؛ لكون إثارة الحرب مع عدم القدرة عليها يترتب عليها أضرار كثيرة كبيرة فيما يتعلق بالدنيا والدين، أقلها الإذلال والإهانة. إذ الجهاد بالقتال هو من الضروريات التي شرعت لجلب المصالح ودفع المضار وهو نوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يتمشى على حسب القدرة بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

وحقيقة الجهاد هو دعوة إلى الخير ونهي عن الشر. والأصل فيه، قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في إعلام الموقعين عن رب العالمين:-

" إن النبي ﷺ شرع لأمته إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله.. فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله

(١) سورة النحل: ١٢٥.

فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر.

وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا أفلا نقاتلهم؟.. فقال: **"لا ما أقاموا فيكم الصلاة"**.

وقال: **"من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يداً عن طاعته"**، ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر قد طلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه.

فقد كان رسول الله ﷺ - يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها.. فالمنكر متى زال وخلفه ضده من المعروف وجب إنكاره، ومتى خلفه ما هو أنكر وأشد منه حرم إنكاره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر. فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم - انتهى كلام العلامة ابن القيم رحمه الله.

*****

# هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة

إن الله سبحانه بعث نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، وقد استحكمت في الناس الضلالة، وخيمت عليهم الجهالة، وسادت بينهم عبادة الأصنام والأوثان والقبور.. فأنقذهم الله ببعثته وبركة رسالته.. فجاهد في الله حق جهاده.. فجاء بدين كامل، وشرع شامل، يهذب أخلاقهم، ويطهر عقائدهم، ويزيل كفرهم، وشقاقهم، ويهديهم للتي هي أقوم، وابتدأ نزول الوحي عليه وهو ابن أربعين سنة من عمره، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو بين القبائل في المواسم ويقول: "**أنا محمد رسول الله من يأويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي**".. فيلقى من قومه أشد الأذى.. ويعذبون كل من آمن به. غير أن أبناء قبيلته وخاصة عمه أبا طالب يحمونه ويذبون عنه العدوان.. وقد دخلوا معه في الشعب حين تمالأت قريش على مقاطعتهم حتى يسلموا لهم محمداً، وكتبوا بذلك صحيفة القطيعة والمقاطعة، وعلقوها على الكعبة.. وفيها يقول أبو طالب في قصيدته الشهيرة:

**جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلاً غير آجل**

وقد أخبره ورقة بن نوفل بمقتضى فراسته بأنه سيؤذى ويمتحن ويخرج من بلده فقال: "**أو مخرجيّ هم من بلدي**"؟ قال: نعم.. إنه لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي وأوذي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث أن توفي - أي ورقة -.

ثم توفيت خديجة وكانت تنفق على رسول الله ﷺ من مالها.. ثم تبعها أبو طالب شيخ قريش وسيدهم، وكان يحب رسول الله ﷺ أشد الحب، يحميه وينصره، وكانت قريش تتحاشى من أذى الرسول ﷺ خشية أن يغضب أبو طالب فيسلم.

ولما توفي أبو طالب اشتد الأذى برسول الله ﷺ وبمن آمن به وخاصة المستضعفين من أصحابه.. كبلال وصهيب وسمية.. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يهاجروا إلى الحبشة، وقال "**إن فيها ملكاً لا يظلم أحد بجواره**".

فهاجر إلى الحبشة جماعة من الصحابة.. رجال ونساء.. فراراً بدينهم من الفتنة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ومنهم الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبي طالب - فخرجوا من مكة يمشون على أرجلهم حتى وصلوا إلى سيف البحر.. فاستأجروا سفينة وركبوا فيها حتى انتهوا إلى الحبشة، وهذه هي الهجرة الأولى.. فآواهم النجاشي وأكرمهم. وقال لهم: أنتم سيوم بأرضي.. اذهبوا حيث شئتم من رامكم بسوء غرم، ثم تتابعوا إلى الهجرة، وكان عددهم يزيد على الثمانين بين رجل وامرأة.

وكان المسلمون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة والعفو والصفح والصبر على أذى المشركين، وكانوا يحبون أن يؤمروا بالقتال لينتصروا وأتى عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له إلى النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا يا رسول الله كنا أعزاء ونحن مشركون فلما أسلمنا صرنا أذلة، فقال رسول الله "**إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم**". فلما أمروا بالقتال كرهه بعضهم، وودوا لو تأخر فرضه عنهم.. وأنزل الله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾[1].

فلما اشتد الأذى برسول الله ﷺ وعظم البلاء كما قال: "**لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أُخفت في الله وما يخاف أحد**".. خرج إلى الطائف يطلب من ثقيف النصرة والتأييد والحماية فلم يجد عندهم قبولاً وأرسلوا عليه سفهاءهم. فكانوا يرمونه بالحجارة ويقولون ساحر كذاب، وزيد بن حارثة يقيه ببدنه من وقوع الحجارة به حتى أدموا عقبه.. فرجع عنهم حزيناً كئيباً حتى أتى وادي نخلة، وهي موضع ميقات أهل نجد فتوضأ وصلى ودعا بدعائه المشهور: "**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى قريب يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي**

(١) سورة النساء: ٧٧-٧٨.

**فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع من ذنوبي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي عقابك.. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا ربك".**

ثم إن رسول الله أراد دخول مكة بعد رجوعه من الطائف فمنعته قريش من الدخول فأرسل إلى المطعم بن عدي وقال: "**إن قريشاً منعتني من دخول بلدي وإني أريد أن أدخل في جوارك**"، فلبى دعوته، وأمر بنيه واخوته أن يلبسوا سلاحهم، فخرج إلى المكان الذي وعده فيه، فدخل مكة فطاف بالبيت وهم محدقون به.. ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول في قتلى بدر: "**والله لو كان المطعم بن عدي حياً فسألني هؤلاء القتلى لتركتهم له**".

فلما استجاب الأنصار لدعوته، والتزموا حمايته بأن يمنعوه ويمنعوا كل من هاجر إليهم من أصحابه مما يمنعون منه أهلهم وأولادهم وتواثقوا معه على ذلك ليلة العقبة فعند ذلك أمر رسول الله ﷺ كل من أسلم بأن يهاجر إلى المدينة فكانوا يخرجون أرسالاً ويهاجرون على سبيل الاختفاء من قريش. وكانت قريش تصادر أموال كل من هاجر منهم، وأنزل الله سبحانه: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾[1]. وهذه هي أول آية نزلت في الإذن بالقتال.

ولما علمت قريش بأن أصحاب الرسول ﷺ قد كثروا وأنهم سيمنعونه أعملت حيلها وآراءها في الإيقاع به. ثم اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة رجلاً فيضربونه جميعاً بسيوفهم في وقت واحد حتى يضيع دمه من بينهم.. فأطلع الله نبيه على كيدهم ومكرهم وأنزل الله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[2].

---

(١) سورة الحج: ٣٩-٤٠.
(٢) سورة الأنفال: ٣٠.

وعلى أثر هذه المالأة على قتله حصل مع رسول الله ﷺ في تلك الليلة شيء من الحذر من هجومهم عليه.

ثم إن الله سبحانه أمر رسول الله ﷺ بالهجرة في شهر ربيع الأول على القول الصحيح، وكان رسول الله ﷺ لا يخطئه يوم إلا ويأتي بيت أبي بكر إما بكرة أو عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه بالهجرة والخروج من مكة. أتى إلى أبي بكر بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: والله ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله عليه. فقال رسول الله: أخرج عني من عندك. فقال: إنما عندي ابنتاي.. عائشة وأسماء. وما ذلك فداك أبي وأمي؟ فقال: إن الله قد أذن لي في الهجرة، فقال: أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، فقال: نعم. فبكى أبو بكر فرحاً فقال يا نبي الله: إن عندي راحلتين أعددتهما لهذا الشأن.. وأخذت أسماء بنت أبي بكر تجهز لهما جهاز السفر، فصنعت سفرة في جراب، وشقت نطاقها نصفين فربطت فم الجراب بنصفه وربطت أسفل الجراب بالنصف الثاني، فسميت "ذات النطاقين".

ثم إنهما استأجرا عبد الله بن أريقط هادياً خرّيتاً وكان مشركاً على دين قومه، فخرج رسول الله ﷺ على حين غفلة من قومه ولم يعلم بخروجه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي الودائع التي عند رسول الله ﷺ للناس، وكان رسول الله ﷺ يُدعى - الأمين - وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. فخرج رسول الله ﷺ صحبة أبي بكر وعمدا إلى غار ثور وهو جبل بأسفل مكة، فدخلاه وأمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة بأن يرعى غنمه بالنهار ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار لتخفي أثرهما، ويشربان من لبنها.

وخرج بعض أشداء قريش في طلب رسول الله ﷺ ومروا بالغار فقال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى شراك نعله لأبصرنا، فأجابه الرسول قائلاً: **"لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"**.

يقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فمكثا في الغار ثلاثة أيام، ثم خرجا منه لإنشاء سفرهما إلى المدينة، ونظر رسول الله ﷺ إلى مكة وقال: "**والله إنك لأحب بلاد الله إليّ ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت**".

ثم إن المشركين من قريش ذهبوا في طلبهما كل مذهب، وجعلوا لمن يرشد عنهما مائة من الإبل، عن كل واحد منهما.. فجاء رجل إلى قوم جلوس - فيهم سراقة ابن مالك بن جعشم - فقال: يا سراقة إني رأيت أسودة بالساحل ولا أراها إلا - محمداً وأصحابه. فقال سراقة: فعرفت أنهم هم. فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً أريد أن أعمي خبرهما حتى أفوز بالإبل.. ثم قمت فدخلت بيتي وأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وأخذت رمحي، وركبت فرسي، حتى إذا قربت منهما إذ سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وأبو بكر يكثر الالتفات، ورسول الله لا يلتفت.

ويقول أبو بكر: يا رسول الله لقد لحقنا الطلب.. ورسول الله ﷺ يقول: "**لا تحزن إن الله معنا**".. فأرسل رسول الله ﷺ عليه سهماً من سهام الدعاء.. فساخت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين قال: فخررت عنها.. فناديتهم بالأمان فوقفوا وعرفت حينئذ أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ على الناس. فقلت له: لله علي أن أرد كل من جاء في طلبك، فادع الله لي أن يخرج فرسي. فدعا الله، وخرجت فرسه، وصدق في قوله، فكان لا يجئ أحد من الطلب إلا رده، ويقول قد كفيتم ما هنالك.

ولما سمع أبو جهل بخبر سراقة بن مالك أخذ يلومه ويعنفه حيث لم يرده. فقال سراقة بن مالك مجيباً له:

**أبا حكم والله لو كنت شاهداً  لأمر جوادي حين ساخت قوائمه**

---

(١) سورة التوبة: ٤٠.

علمتَ ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

وسار رسول الله ﷺ في طريقه فمر بخيمتي أم معبد الخزاعي، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي الناس. فجاء رسول الله ﷺ وأبو بكر فسألوها هل عندك من لحم أو لبن نشتريه؟. فلم يجدوا عندها شيئاً. وقالت لو كان عندنا من ذلك شيء ما أعوزكم القِرَى. وكان القوم مجدبين مسنتين فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر خيمتها، فقال ما هذه الشاة يا أم معبد؟. فقالت هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال: هل فيها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من ذلك. فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت إن كان بها حليب فاحلبها، فدعا رسول الله ﷺ للشاة ومسحها وذكر اسم الله عليها، فدرت، واجترت، وتفاجت. ودعا بإناء لها يربظ الرهط، فحلب فيه حتى ملأه، فشربوا علاً بعد نهل، ثم حلب فيه ثانياً، فغادره عندها ثم ارتحل. فجاء زوجها أبو معبد فسألها عن هذا اللبن، فأخذت تخبره خبره، وتقص عليه صفته، وتقول إنه مر بنا رجل مبارك صفته كيت وكيت، فاستقصت في أوصافه. وقالت له: رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا قوله، وإن أمر تبادروا أمره، وهو أحسن الثلاثة منظراً.

فقال: والله هذا صاحب قريش الذي تطلبه.

ودخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الزوال، فتنازعه القوم كلهم يريد أن ينزل عنده، فقال سأنزل على بني النجار أخوال جده عبد المطلب ليكرمهم بنزوله عندهم، فنزل على أبي أيوب الأنصاري، فأقام بقُبَاء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وصلى بالناس الجمعة، وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، وأسس مسجد قباء. ثم ركب ناقته، فجعلت قبائل الأنصار يعترضونه في طريقه، كل منهم يطلب نزوله عنده، ويقولون هلم إلينا فعندنا العدد والمنعة، ورسول الله ﷺ يقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، حتى أتت موضع مسجده الآن، فبركت به ناقته.

ومن كريم شعر الأنصار في الهجرة قول قيس بن صرمه:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى حبيباً مؤاتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا

فلما أتانا واستقرت به النوى وأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من الناس باغيا

بذلنا له الأموال من جل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

*****

# حديث العير والنفير

قال الكاتب: (ويكفي عن كل قول ودليل مجرد أن نذكر غزوة أو بداية غزوة وذلك: أن الرسول حين خرج لأخذ القافلة التي تحمل تجارة لقريش كان خروجه هذا للقتال ولم يكن في هذا نوع دفاع. ثم كان بعدها وقعة بدر بين المسلمين والمشركين وهذا فيه دليل قوي على أن الخروج للقتال يعني الطلب.. فالرسول وأصحابه لم يدافعوا عن أنفسهم في هذه الواقعة بل كانوا مبتدئين بالقتال طالبين للعدو.

وحروب الرسول ﷺ في خيبر وهوازن وحصاره للطائف حيث كان الرسول هو البادئ بالقتال لنشر هذا الدين وتحكيم الكتاب بينهم ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه.. فإنه لم يسبق منهم ذلك إلا في نادر الأحوال) انتهى كلامه.

وأقول إن الكاتب - رحمه الله - تناول وقعة بدر وما ترتب عليها من خبر العير والنفير، وهي وقعة مشهورة، ويدرسها الطلاب في مدارسهم.. لكونها وقعة مشهورة.. فهم يعرفونها ويعرفون أسبابها تمام المعرفة. فلو سأل عنها أحد أولاده لأخبره أن قريشاً هم الأعداء الألداء والبادئون بالاعتداء على الرسول وأصحابه.. فهم أئمة الكفر الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].. فسماهم الله أئمة الكفر. من أجل أن الناس يأتمون بهم في اعتقاد الكفر والعمل على حسابه.

ثم أثبت سبحانه اعتداءهم على المؤمنين في ابتداء الأمر ونهايته إلى قوله: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) سورة التوبة: ١٢-١٣.

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ففي هذه الآيات أوضح الدلالات على بداءتهم بالاعتداء في الابتداء على رسول الله ﷺ وأصحابه.. فكان رسول الله ﷺ بمكة يأتيه أصحابه ما بين مجروح ومضروب، وقد توفيت سمية أم عمار تحت التعذيب في سبيل إسلامها.. كما توفي زوجها ياسر جراء ذلك، وكان رسول الله ﷺ يمر عليهما وهما يعذبان ويقول: صبراً يا آل ياسر.. فإن موعدكم الجنة. وكانوا يحمون الحجارة ويضعونها على بطن بلال وظهره، ويقولون له: قل واللات والعزى، فيقول: أحد أحد.

ومن المعلوم بطريق المقاضاة بالمثل أن المحاربين يتحينون الفرصة لمواثبة عدوهم، ويغتنمون غرته وغفلته.. لأن الحرب خدعة. وهذا واضح من فعل النبي ﷺ وأصحابه في هذه الواقعة. غير أن الهوى يعمي عن رؤية الحق، كما أن الكبر يمنع من اتباعه. ومثل هذا لن يخفى على أحد غير أن الكاتب أراد أن يوجد دليلاً يثبت صحة ما ذهب إليه من أن الجهاد سببه الكفر، وأن الكفار يقاتلون حتى يسلموا.

*****

(١) سورة التوبة: ١٣-١٥.

# وقعة بدر الكبرى

وحاصل القصة هو ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية - عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلاً من الشام - بعير قريش - فعند ذلك ندب المسلمين إليه، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.. فندب الناس، فخف بعضهم للخروج، وثقل بعضهم. لأنهم يظنون أن رسول الله ﷺ لن يلقى حرباً، وكان أبو سفيان بن حرب حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار تخوفاً على الأموال التي معه حتى أصاب خبراً من بعض الركبان بأن محمداً قد استنفر أصحابه لعير قريش، لهذا أخذ أبو سفيان الحذر، وهو من السياسة والرياسة بمكان وبصحبة عمرو بن العاص فأستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة وأمره بأن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى حماية أموالهم ويخبرهم بأن محمداً وأصحابه قد عرضوا لها لمحاولة أخذها.. فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة حتى وصلها، وكان رجلاً خفيفاً حديد اللسان.. فلم يرع قريش إلا صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع أنف بعيره، وحوَّل رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة.. أموالكم مع أبي سفيان بن حرب قد عرض لها محمد في أصحابه.. لا أرى أن تدركوها.. الغوث الغوث..

قال: فتجهز الناس سراعاً، وقالوا أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير ذلك.. فخرجوا على الصعب والذلول.

قال ابن إسحاق.. فكانوا بين رجلين - إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً.. وأوعبت قريش.. فلم يتخلف من أشرافها أحد إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة - استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها.

قال ابن إسحاق: وحدثني ابن أبي نجيح - أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً.. فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها فيها نار حتى وضعها بين يديه.. ثم قال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء.. قال: قبحك الله، وقبح ما جئت به.. قال: يا أبا علي تجهز. واخرج مع الناس.. هكذا قال ابن إسحاق في هذه القصة.

وقد رواها البخاري على نحو آخر - فقال: حدثني أحمد بن عثمان حدثنا شريح بن مسلمة - حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق، حدثني عمر ابن ميمون - أنه سمع عبد الله بن مسعود حدث عن سعد بن معاذ أنه كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية.. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد بن معاذ معتمراً.. فنزل على أمية بمكة.. قال سعد لأمية انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت.. فخرج به قريباً من نصف النهار.. فلقيهما أبو جهل: فقال يا أبا صفوان: من هذا الذي معك؟ قال: هذا سعد، قال له أبو جهل.. ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم.. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً.. فقال له سعد ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه - طريقك إلى المدينة.. فقال له أمية لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم.. فإنه سيد أهل الوادي.. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك.. قال: بمكة - قال: لا أدري.. ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً.

فلما رجع إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي.. فقالت: بمكة - قال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر - استنفر أبو جهل الناس.. فقال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج.. فأتاه أبو جهل- فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت

وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ عبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان أوقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر. وقد رواه البخاري في موضع آخر عن محمد بن إسحاق عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق.

وقال يونس عن ابن إسحاق - خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلاً، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين وذكر المطعمين لقريش يوماً يوماً.. وذكر الأموي أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل - نحر لهم عشراً، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعاً، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشراً، ومالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها وأقاموا بها يوماً.. فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً.. ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشراً.. ثم أصبحوا بالأبواء، فنحر لهم نبيه ومنبه أبناء الحجاج عشراً. ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشراً.. ونحر لهم على ماء بدر أبو البختري عشراً.. ثم أكلوا من أزوادهم. قال الأموي.. حدثنا أبو بكر الهذلي.. قال كان مع المشركين ستون فرساً وستمائة درع، وكان مع رسول الله ﷺ فرسان وستون درعاً.

هذا ما كان من أمر هؤلاء في نفيرهم من مكة ومسيرهم إلى بدر.. وأما رسول الله ﷺ.. فقال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه.. وكان جملة الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ثلاث مائة وأربعة عشر رجلاً.. واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع لواءه إلى مصعب بن عمير.. وكان أبيض، وبين يدي رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها "العقاب" والأخرى مع بعض الأنصار.

قال ابن هشام: كانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ، وقال الأموي: كانت مع الحباب بن المنذر، قال ابن إسحاق وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها.. فكان رسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً.. فقالا: نحن نمشي عنك يا رسول الله.. فقال: "**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**".

ثم نزل مما ثار الخبر عن قريش واستشار الناس.. فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن المقال. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك.. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى.. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن نقول اذهب فقاتل ونحن نقاتل عن يمينك وشمالك.

قال ابن إسحاق: وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه ومجدى بن عمرو الجهني على الماء.. فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحضر وهما يتلازمان على الماء، والملزومة تقول لصحابتها إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم.. ثم أقضيك الذي لك.

قال مجدى: صدقت.. ثم خلص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسبس. فجلسا على بعيريهما.. ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه بما سمعا وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء.. فقال لمجدي بن عمرو وهل أحسست أحداً.. قال ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل.. ثم استقيا في شن لهما.. ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما. فأخذ من أبعار بعيريهما ففته.. فإذا فيه النوى، فقال هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعاً.. فضرب وجه عيره عن الطريق.. فساحل بها، وترك بدراً بيساره وانطلق حتى أسرع..

قال ابن إسحاق.. ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله. فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام،

ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً.. فامضوا..

وكان الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليفاً لبني زهرة وهم بالجحفة فقال: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة ابن نوفل.. وإنما نفرتم لتمنعوه وماله.. فاجعلوا بي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة.. لا ما يقول هذا، قال: فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد. أطاعوه وكان فيهم مطاعاً، ولم يكن بقي من بطن قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس. فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد. قال ومضى القوم.

قال ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، ونزل رسول الله وأصحابه بالعدوة الدنيا مما يلي المدينة.

قلت: وفي هذا قال تعالى: ﴿**إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ**. أي من ناحية الساحل. **وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾[1] الآيات. وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ماء لبّد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

قلت: وكانت ليلة بدر ليلة الجمعة السابعة عشرة من شهر رمضان سنة ثنتين من الهجرة وقد بات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جذع شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول.. يا حي.. يا قيوم.. يكرر ذلك ويلفظ به عليه السلام.

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به. قال ابن إسحاق: فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح - قال يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل.. أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه.. أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟. قال: "**بل**

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

**هو الرأي والحرب والمكيدة**".. قال يا رسول الله.. فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء.. ثم نقاتل القوم فنحن نشرب وهم لا يشربون.. فقال رسول الله ﷺ.. "**أشرت بالرأي**"..

ثم إن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد سابق كما قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ**﴾(١). وكان المشركون هم أول من بدأ بالهجوم على رسول الله وأصحابه حيث إن الأسود بن عبد الأسد هجم على الحوض الذي بناه المسلمون فتلقاه حمزة بسيفه فقطع رجله، ثم نشبت الحرب بينهما فنصر الله نبيه وجنده على المشركين، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وضربوا عليهم الفداء كل واحد بحسبه.

وقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأسرى فأشار أبو بكر قائلاً يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما نأخذه قوة لنا على قتال الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا عضداً لنا. وقال ما ترى يا عمر؟ فقال إني لا أرى رأي أبي بكر ولكني أرى أن تمكنني من قريبي فلان وتمكن علياً من قريبه فلان وتمكن كل قريب من قريبه فنضرب أعناقهم حتى يعلموا انه ليس في قلوبنا هوادة ولا مودة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فركن رسول الله ﷺ إلى ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قاله عمر فضرب عليهم الفداء كل أحد بحسبه، ولم يقل لهم إما أن تسلموا وإلا قتلناكم، بل سرحهم إلى أهلهم بشركهم حتى دخلوا في الإسلام باختيارهم بعد فتح مكة، ومنهم من دخل الإسلام قبل ذلك.

ثم إن الرسول ﷺ وأصحابه غنموا ما عند قريش من الخيل والدروع والسلاح، ورجع فلُّهم أي بقيتهم إلى مكة مكسورين حزينين، ومنعوا النياحة على قتلاهم اتقاء الشماتة، وكان الحجاج بن علاثه قد قتل له ابنان هما نبيه ومنبه

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

فسمع صوتاً عالياً، فقال لجاريته انظري ما هذا الصوت لعله نُفِس عن الناس في ندب موتاهم حتى أبوح بما في صدري؟ فرجعت الجارية وقالت يا سيدي هذا صوت امرأة أعرابية قد انطلق بعيرها من عقاله فهي تندبه تريد رده فتزفر وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها عن النوم السهود

فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود

لقد ساد بعدهم أناس ولولا يوم بدر لم يسودوا

*****

# حِوار الصّلح والمعاهَدَة والمهادَنَة
# بَين المسلِمين والمشركين

إن دين الإسلام هو دين الصلاح والإصلاح، يقول الله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(١).

فليس الدين بحرج ولا أغلال دون الكمال... يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم به لعلكم تذكرون... وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون.. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة.

ولا يزال الصلح والمعاهدة والمهادنة جارياً بين المسلمين وبين أضدادهم من المشركين من لدن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه وسائر حكام المسلمين؛ لأن أحوال الأمم تدور بين السلم القريرة والحرب المبيرة والمداجاة الغفيرة أي المهادنة مع العداوة.

ولا ينبغي أن ننسى إجراء الصلح من رسول الله ﷺ مع قريش في صلح الحديبية عام ست من الهجرة ونهايته.. فإن فيه في ظاهر الأمر نوع هضم وضيم على الإسلام والمسلمين، وفي عاقبته نصر من الله وفتح قريب.

وحاصله أن النبي ﷺ صالح مشركي قريش في صلح الحديبية على وضع الحرب عشر سنين.. يأمن فيه الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أن من جاءه مسلماً رده إليهم، ومن جاءهم مرتداً لم يردوه إليه.. وعلى أن يرجع بأصحابه هذه السنة فلا يدخلوا البيت، وكان هو وأصحابه قد أحرموا بالعمرة، وعلى أن من دخل

(١) سورة النساء: ١١٤.

في عقد الرسول وعهده فهو منه، ومن دخل في عقد قريش وعهدهم فهو منهم. فدخل في عقد الرسول وعهده خزاعة، فكانت عيبة نصح لرسول اللهﷺ. مسلمهم وكافرهم، ودخل في عقد قريش بنو بكر وغطفان والأحابيش. وكان متولي الصلح عن قريش هو سهيل بن عمرو. ولما قال الرسول ﷺ: اكتب، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال: لا تكتب رسول الله فإننا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. اكتب محمد بن عبد الله. فأمر النبي ﷺ علياً أن يكتب محمد بن عبد الله. وفي أثناء الكتابة جاء أبو جندل بن سهيل فاراً بدينه من الشرك والمشركين فرمى بنفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقال سهيل هذا أول ما نقاضيك عليه أن ترده علينا. فقال: اتركه لي، فقال: لا. فأمر رسول الله ﷺ برده، فعند ذلك وقع الاضطراب من الصحابة حتى جاء عمر إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال: أو ليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فلم نعط الدنية في ديننا؟. فقال أبو بكر: إنه عبد الله ورسوله ولن يضيعه فاستمسك بغرزه. ثم جاء عمر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله: ألم تقل لنا إننا داخلون البيت ونطوف به؟ قال: بلى، وهل قلت لكم هذه السنة؟ قال: لا. قال: "**فإنك ستدخل البيت وتطوف به**". ثم إن رسول الله أمر أصحابه بأن يحلوا من إحرامهم وينحروا هديهم فتلتكؤوا واستبطؤوا ظناً منهم أنه سينزل الوحي بخلع هذا العقد فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة فقال: "**ألم تري إلى قومك أمرتهم أن يحلوا من إحرامهم وينحروا هديهم فاستبطؤوا**". فقالت أم سلمة: يا رسول الله انحر هديك واحلق رأسك، ولا تكلم أحداً، فإنهم سيتابعونك على فعلك، وفعلاً نحر هديه، وحلق رأسه، فأخذوا يتزاحمون على ذلك طاعة له.

وقد ذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابه زاد المعاد في بيان الحِكم والمصالح التي اشتملت عليها هذه المصالحة.. وأن الله سبحانه هو الذي أحكم أسبابها.. فوقعت بالغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده ورحمته.. وسماها الله فتحاً.. فقال سبحانه: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾[1] - يعني صلح الحديبية -

(١) سورة الفتح: ١.

فمنها أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده ودخل الناس في دين الله أفواجاً.. فكانت هذه الهداية باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه حكمة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها..

ومنها أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح.. فإن الناس آمن - بعضهم بعضاً واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين. وظهر من كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله له أن يدخل.. ولهذا سماه الله فتحاً.. فقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]. والمراد به "صلح الحديبية".

قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاء عظيماً. وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية. وحقيقة الأمر أن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين وفي الباطن عزاً وفتحاً ونصراً.

وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كلما طلبوا، سألوه من الشروط التي لم يتحملها عقول أكثر الصحابة ورؤوسهم. ورسول الله ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من الأمر المحبوب.. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

**وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب**

*****

(١) سورة الفتح: ١.

# وقعة خيبر

وأما قول الكاتب: (إن غزو النبي ﷺ وأصحابه لخيبر أنها وقعت ابتداء منه بدون أن يسبق منهم تعد بطريق الابتداء على الرسول وأصحابه. فهذا مما يحقق كون الجهاد المشروع هو الابتداء أي الطلب - لنشر دين الله وإعلاء كلمته).

وأقول: إن يهود خيبر مرتبطون بيهود المدينة في الحماية والنصرة وفي العهد وفي نقضه، وكانوا حلفاء لغطفان.. تحارب غطفان لحربهم كما أن أهل خيبر يحاربون لحرب غطفان. قاله ابن كثير في البداية، وقد غزا غطفان بمن معهم من أهل خيبر يوم الأحزاب حيث تحزبوا مع قريش وقبائل العرب والأحابيش.. وذكر المؤرخون من أهل السير أن أهل خيبر هم أكبر من حرض قريشاً واليهود وغطفان على حرب رسول الله ﷺ. ونقض يهود المدينة العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ حيث ظنوا أن هذه الغزوة هي المستأصلة للرسول وأصحابه، وقد كبر الأمر على المسلمين حيث تحزبت جميع القبائل عليهم وذلك عام خمس من الهجرة، وقد ضربوا على المدينة خندقاً يتقون به هجوم الأحزاب عليهم، وقد أنزل الله سورة الأحزاب في شأنهم ومنها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾. إلى قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1].

لهذا غزا النبي ﷺ خيبر عام ست من الهجرة، ولما قرب منها نزل في مكان بين خيبر وغطفان ليقطع صلة غطفان ونصرتهم لأهل خيبر، وقد استعدت غطفان

(١) سورة الأحزاب: ٩-٢٥.

حين سمعت بالخبر بالحرب مع أهل خيبر، لكن رجالها حينما سمعوا بأن العدو قد صبح أهلهم - نفروا لنصرتهم وتركوا أهل خيبر. ففتحها رسول الله ﷺ وأصحابه. وقد بشرهم القرآن بفتحها وهم بين مكة والمدينة.. فقال سبحانه:

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾(١). والمقصود أن رسول الله ﷺ لم يفتحها إلا بعد جهاد شديد، وقتال ضار بين الفريقين.. فكانوا مستحقين للقتال، ويعتبر قتالهم دفعاً لشرهم لكونهم محاربين لله ورسوله وعباده المؤمنين.. والمحارب يقاتل من حيث وجد، يقول الله تعالى:﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٢).

*****

(١) سورة الفتح: ٢٠.
(٢) سورة الأنفال: ٥٧.

# طريقنا في الدّعوة إلى دين الإسلام

قلنا في دعوتنا إلى دين الله وإلى الجهاد في سبيل الله.. إن الإسلام يسالم من يسالمه، ولا يقاتل إلا من يقاتله، أو يمنع نشر دعوته، أو يقطع السبيل في منع إبلاغها للناس، فإنهم بمنع إبلاغها يعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين. لأن الله سبحانه أمر بإبلاغ هذا الدين والتبشير به جميع خلقه فقال سبحانه: ﴿وأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[1]، فمتى أقبل دعاة الإسلام على بلد ليدعوا أهلها إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن، فإن فتح لهم الباب، وسهل لهم الجناب، وأذن لهم بالدخول ونشر الدعوة فهذا غاية ما يبتغون، وبذلك فليفرح المؤمنون.. فلا قتل ولا قتال، وكل الناس آمنون على دمائهم وأموالهم، وقد فتح المسلمون كثيراً من البلدان بهذه الصفة مما يسمى صلحاً. أما إذا نصبت لهم المدافع، ووجهت نحوهم أفواه البنادق، وسلت في وجوههم السيوف، ومنع الدعاة منعاً باتاً عن حرية نشر دعوتهم وعن الاتصال بالناس في إبلاغهم دين الله الذي فيه سعادتهم وسعادة البشر كلهم، فإنهم يعتبرون حينئذ بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين. ويعتبر المسلمون بأنهم مكلفون من الله في اقتحام كل شدة ومشقة، وخوض كل خطر وضرر في سبيل الله وفي سبيل نشر دين الله، حتى يزول المنع والاضطهاد والفتنة عن الدين.. يقول الله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[2].. وقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[3]. ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[4] فقتالهم

(١) سورة الأنعام: ١٩.
(٢) سورة البقرة: ١٩٣.
(٣) سورة البقرة: ١٩١.
(٤) سورة محمد: ٤.

والحالة هذه هو في سبيل الله، ولا يبالون بما أصابهم في ذات الله لأن الله سبحانه قد اشترى من المؤمنين أنفسهم في سبيل نشر دين ربهم وإعلاء كلمته.. فهم يتمنون الشهادة في سبيل الله كما يتمنى أكثر الناس الحياة لعلمهم أن لهم حياة أخرى هي أبقى وأرقى من حياتهم في الدنيا، وقد باعوا أنفسهم لله في سبيل الحصول عليها.

يقول الله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(١). فهذا طريق دعوتنا إلى دين الإسلام.

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه.. فمن في سبيل الله؟ فقال: "**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله..**" رواه البخاري ومسلم في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وحتى القتال في سبيل نصر المستضعفين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، يقول الله: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾(٢).

وهذه وإن نزلت في المستضعفين بمكة الذين لم يستطيعوا الهجرة لكنها شاملة لكل من كان بصفتهم إلى يوم القيامة.. لكون الاعتبار في القرآن هو بعموم لفظه لا بخصوص سببه. ولأن المسلمين متكافلون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، فمتى نبغ عدو على المسلمين وجب أن يكونوا كاليد الواحدة في دحر نحره وكف شره.

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة النساء: ٧٥.

هذا وإن الحروب بين المسلمين والكفار يكون لها أسباب تثيرها وأحوال تهيجها سوى ما ذكرنا مما يدخل تحت الدفاع عن حقوق المسلمين لاعتبار أنهم متكافلون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. فمتى همّ العدو الغاشم باغتصاب بلادنا أو شيء من حقوقنا أو أراد العدو الباغي استذلالنا أو العدوان على استقلالنا بقطع حرية دعوتنا إلى دين الله. فعند ذلك يجب أن نتحلى بحلية الشجاعة والقوة والعزة فنقاتل في سبيل ذلك حتى تكون حقوقنا محفوظة، وهذا من باب الدفاع عن الدين، وكف الاعتداء عن المسلمين، وعن بلادهم وأفرادهم حتى في غير بلاد المسلمين؛ لاعتبار أن المسلمين بعضهم أولياء بعض، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، وحتى لو حصل الاعتداء على كافر من أهل الذمة فإنه يجب الدفاع عنه بما نستطيعه من قوة.

وقال الإمام ابن حزم في مراتب الإجماع.. إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك.. فإن تسليمه إهمال لعقد الذمة وكل هذا من أنواع الجهاد بالدفاع الذي نعتقده ونؤمن بصحته.

ثم إن هذه المسألة تليدة الأصل، وليست بوليدة هذا العصر.. فقد وقع الخلاف فيها بين أئمة المذاهب - قبل كل شيء - فذهب الجمهور كمالك وأحمد وأبي حنيفة إلى أن سبب الجهاد هو المقاتلة أي نقاتلهم عند قتالهم لنا أو منعهم نشر ديننا.. وذهب الإمام الشافعي إلى أن سببه الكفر فيقاتلون حتى يسلموا.

حكاه شيخ الإسلام "ابن تيمية" في قاعدة قتال الكفار.. قال: وقول الجمهور هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار.

*****

# الفَتح الأكبر الذي أعزّ الله به الإسلام ونصَر وأذَلّ به البَاطل وكسر

قال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(١).

المراد بالفتح هنا هو صلح الحديبية لكونه انفتح به ما هو مغلق بين الرسول وأصحابه وبين كفار قريش. ولما نزلت هذه الآية قال الصحابة: هنيئاً مريئاً، هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢). حاصلها أنها لما اشتدت حالة الحرب بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش وقد كثر أصحاب رسول الله ﷺ وقويت شوكتهم بتوفر عددهم وعدتهم.. في السنة السادسة من الهجرة رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه وأصحابه يطوفون بالبيت محلقين رؤوسهم ومقصرين كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٣). أي صلح الحديبية.

وكانت الحديبية عيناً تقع على حدود الحرم من جهة جدة، ونزل رسول الله ﷺ بأصحابه خارج الحرم، وإذا أراد أن يصلي دخل حدود الحرم لمضاعفة ثواب الصلاة فيه.

فعزم رسول الله ﷺ على العمرة، وأنه سيقاتل المشركين إن صدوه عن البيت، ودعا أصحابه إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايعوه على الموت بأن لا يفروا،

---

(١) سورة الفتح: ١-٣.

(٢) سورة الفتح: ٥.

(٣) سورة الفتح: ٢٧.

فأحرموا من ميقاتهم للعمرة، واستتفر من حوله من الأعراب، فاعتذروا قائلين: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، وذلك لظنهم أن الرسول ﷺ وأصحابه لن يرجعوا سالمين، فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار وعددهم ألف وخمسمائة، وكان مع رسول الله ﷺ زوجته أم سلمة، وقلد الهدي معه ليعلم الناس أنه لم يأت للقتال، وإنما جاء للاعتمار.

وبعد أن وصل إلى عسفان جاءه عينه فأخبره بأن قريشاً أجمعت رأيها على أن يصدوه عن دخول مكة وأن لا يدخلوها عليهم عنوة أبداً، وتجهزوا للحرب، فبعد المراجعة بينهم وبين رسول الله ﷺ اتفق رأيهم أن يرسلوا سهيل بن عمرو لإجراء عملية الصلح، فلما أقبل سهيل قال رسول الله: "**قد سهل لكم من أمركم**" فبرزوا لعقد الصلح، وكان الكاتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا تكتب بسم الله، اكتب باسمك اللهم، ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال: لا تكتب رسول الله فلو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال: امح رسول الله واكتب محمد بن عبد الله، والصلح على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيه الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أن من جاءك مسلماً رددته إلينا، ومن جاءنا منكم لم نرده عليكم، وعلى أنكم ترجعون عامكم هذا فلا تدخلوا مكة حتى لا يتحدث الناس أنكم أخذتمونا ضغطاً، وفي العام القابل تعتمرون بالسيوف في القرب، وفي أثناء الكتابة جاء أبو جندل فاراً بدينه من مكة فرمى بنفسه بين المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما نقاضيكم على رده. فطلب رسول الله ﷺ أن يسمح له به فأبى، فأمر رسول الله ﷺ برده إليه.

وبعد ما تم عقد الصلح أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يحلوا من إحرامهم، وينحروا هديهم، فتلكئوا، ووقع الاضطراب بينهم عندما رأوا أبا جندل مردوداً إلى الكفر، فقالوا يا رسول الله كيف من جاءنا مسلماً نرده إليهم ومن جاءهم مرتداً منا لا يردونه إلينا؟ فقال رسول الله ﷺ: "**إن من جاءنا مسلماً فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن جاءهم مرتداً منا فأبعده الله**" ثم جاء عمر إلى أبي بكر فقال يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال: أوليس قتلانا في الجنة

وقتلاهم في النار. قال: بلى قال: فلم نعط الدنية في ديننا؟! فقال إنه رسول الله فاستمسك بغرزه، ثم جاء إلى رسول الله فقال له مثل ذاك، وقال: ألم تقل لنا انكم ستأتون البيت وتطوفون به فلماذا نرجع عنه؟ فقال: "**هل قلت لكم هذه السنة**" قال: لا. قال "**فإنكم ستأتونه وتطوفون به**".

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنهم يدخلون البيت ويطوفون به، فأخبر أصحابه بذلك، فظنوا أن هذا أمر واقع لهذه السفرة، وهذا في قوله: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[1].

وفي الصلح أن من دخل في عقد رسول الله وعهده فإنه منه، ومن دخل في عقد قريش وعهدها فإنه منهم، فدخل في عقد رسول الله خزاعة، ودخل في عقد قريش بكر وغطفان، فنحر رسول الله ﷺ هديه، وحلق رأسه، وتتابع الصحابة على ذلك، وحلوا من إحرامهم، ورجعوا إلى المدينة، ثم إن قريشاً مع من أعانهم من عرب الحجاز ونجد هجموا على خزاعة في حال غفلة منهم، فقتلوهم، وبذلك انتقض عهدهم، وعزم رسول الله ﷺ على غزوهم، وقال: "**اللهم عمِّ الأخبار عن قريش حتى نبغتها في دارها**".

فلما عزم على الخروج كتب حاطب بن أبي بلتعة إليهم يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم، وقال في كتابه: يا معشر قريش إن محمداً قد عزم على غزوكم بجيش كالسيل يختفي بالنهار ويسير في الليل، والله لو جاءكم وحده لنصره الله عليكم، فانظروا في أمركم، والسلام. وأرسل الكتاب مع امرأة فنزل الوحي بخبرها.

وأرسل علياً والمقداد لذلك، وقال: "**إنكم ستأتون امرأة ظعينة بروضة خاخ ومعها كتاب فخذاه منها**" فوجدوها كما وصفها رسول الله ﷺ في روضة خاخ فقالا: هات الكتاب، فقالت ليس معي كتاب فقالا: والله لتخرجن الكتاب أو لنجردن

(١) سورة الفتح: ٢٧.

الثياب فأخرجت لهما الكتاب من عقاص شعرها، فقال رسول الله ﷺ لحاطب "**ما حملك على ذلك؟**" فقال والله ما فعلته ردة عن الإسلام، وما من أحد من قريش إلا وله قرابة يحمون ماله، وليس لي أحد، فأردت أن أجعلها يداً عندهم يحمون بها مالي. فقال رسول الله: "**قد صدقكم**". فقال عمر: دعني أضرب عنقه. فقال: "**إنه من أهل بدر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**". فصار صلح الحديبية الذي كرهه أكثر المسلمين ويرون أن فيه غضاضة وهضماً للمسلمين فصار عاقبته فتحاً ونصراً مبيناً، وبه فتح الله مكة لرسوله فدخلها رسول الله والمسلمون عنوة وسلاح أهلها بأيديهم مستعدين لحرب رسول الله ﷺ وأصحابه، فوسع نطاق الأمن للناس، وقال: "**من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن**" - وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، ولما سمعه يرتجز في تمنيه للقتال ويقول اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الكعبة، فأخذ الراية منه، ودفعها إلى ابنه قيس، وقال للصحابة: "**إنه سيلقاكم أو باش قريش فإياكم تحصدوهم**".

وكان رجل يصلح سلاحه لمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه وعنده زوجته، فقالت له ما أرى أحداً يقوم لمحمد وأصحابه، فقال إني أرجو أن أُخْدِمك أحدهم، ثم أخذ يرتجز ويقول:

**إن يقبلوا اليوم فمالي عله  هذا سلاح كامل وإله**

**وذو غرارين سريع السله**

ثم أخذ سلاحه وخرج ثم رجع سريعاً مذعوراً. وقال لزوجته: اغلقي علي الباب فقالت له: ما أسرع ما رجعت فأخذ ينشد:

**إنك لو رأيت يوم الخندمة  إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمه**

**واستقبلتنا بالسيوف المسلمة  يقطعن كل ساعد وجمجمه**

**لهم نهيت خلفنا وهمهمه  لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه**

ولما دخل النبي ﷺ مكة مؤيداً منصوراً ومحشوداً محفوداً، ورأى النساء يصرخن بالبكاء ويرمين خمرهن في وجوه الخيل خوفاً على أولادهن وأزواجهن من

القتل. التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر فقال: ما يقول حسان في مثل هذا. فقال: يقول:

**عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء**

**ينازعن الأعنة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء**

**تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء**

ثم إن رسول الله ﷺ وسع مجال الأمان للناس - فقال: "**من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن وضع سلاحه فهو آمن**"، فوضعوا كلهم سلاحهم، وصدق عليهم قول الشاعر:

**دعا المصطفى دهراً بمكة لم يجب وقد لان منه جانب وخطاب**

**ولما دعا والسيف صلت بكفه له أسلموا واستسلموا وأنابوا**

ثم إن رسول الله ﷺ جمع قريشاً، فقال لهم: "**ما تظنون أني فاعل بكم؟**" فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، لقد آثرك الله علينا، وإن كنا لخاطئين، فقال لهم "**اذهبوا فأنتم الطلقاء**" وسموا الطلقاء من يومئذ.. وهم مُسْلِمَة الفتح، ولم يقتل منهم سوى أفراد يعرف أن بقاءهم يفسد بقيتهم. منهم عقبة بن أبي معيط - الذي وضع سلاء الجزور على رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد. ومنهم النضر بن الحارث - الذي كان يهجو رسول الله ﷺ بشعره، ولما أعلن لهم بالعفو الشامل قام أبو سفيان ابن حرب - فأنشد أبياتاً منها:

**لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيلُ اللاتِ خيل محمد**

**لكالمدلج الحيران أظلم ليلهُ فهذا أواني حين أهدى فأهتدي**

**هداني هاد غير نفسي ودلني على الله من طردته كل مُطَرَّد**

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال له: "**أنت طردتني كل مطرد**"[1].

ثم إن رسول الله ﷺ ترك أهل مكة على حالتهم وعلاتهم ولم يثبت التاريخ أنه سأل واحداً منهم عن إسلامه بل تركهم حتى دخلوا في الإسلام باختيارهم

ورغبتهم تدريجاً وصدق عليهم قوله سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وقد أمر الله نبيه بأن يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(٢).

ولو كان قتال الكفار مشروعاً حتى يسلموا لوجب أن يميز النبي ﷺ بين من أسلم فيستبقيه وبين من أصر على كفره فيقتله. وبعد فتح مكة أخذ الناس يدخلون في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً طائعين مختارين لكون عرب الحجاز ونجد قد استأنوا بإسلامهم فتح مكة.

وقالوا إن كان محمد رسولاً فسيظهر على قريش ويفتح مكة. وإن لم يكن رسولاً فستظهر عليه قريش ويقتلونه. ولما فتح الله عليه مكة أقبلت وفود العرب من كل فج عميق يظهرون إسلامهم.

وأنزل الله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(٣). وفي هذه السورة إشعار باقتراب أجل رسول الله ﷺ.

*****

(١) سورة الممتحنة: ٧.
(٢) سورة يونس: ١٠٨.
(٣) سورة النصر: ١-٣.

# غزوة هوازن
# (يوم حنين)

قال الكاتب: (إن حروب الرسول ﷺ - وأصحابه - لهوازن وحصاره للطائف وكذلك الغزوات الأخرى حيث كان الرسول هو البادئ للقتال لنشر هذا الدين بين الناس، ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه، فإنهم لم يسبق لهم ذلك إلا في نادر الأحوال).

وأقول:- سبحان الله ما أغفل هذا الكاتب عن سبب مثار هذه الغزوة وبداءة الاعتداء من ملك هوازن - مالك بن عوف - حيث زحف بالجنود من العرب الذين اتبعوه.. فزحف بهم من عوالي نجد.. وأهلهم وعيالهم معهم للحفيظة والمصابرة على القتال حتى يفاجأ النبي ﷺ وأصحابه بالهجوم عليهم من قريب لظنه أن المغلوبين من أهل مكة سيكونون عوناً له على قتال الرسول ﷺ وأصحابه، وقد خاب سعيهم فيما يؤملون، وحيل بينهم وبين ما يشتهون.

فجهاد رسول الله ﷺ لهم هو حقيقة في دفع شرهم مع العلم أنهم من الأعراب الذين قال الله فيهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾(١).

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة: ٩٧.

(٢) سورة التوبة: ٢٥-٢٧.

وقد ذكر ابن إسحاق بن يسار في كتابه..أن خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن بعد الفتح في الخامس من شوال سنة ثمان، وزعم أن الفتح كان لعشر بقين من شهر رمضان قبل خروجه إليهم بخمس عشرة ليلة.. وهكذا روي عن ابن مسعود - وبه قال عروة بن الزبير، واختاره أحمد وابن جرير في تاريخه.

وقال الواقدي: خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن لست خلون من شوال.. فانتهى إلى حنين في عاشره.. وقال أبو بكر الصديق: لن نغلب اليوم من قلة.. فانهزموا.. فكان أول من انهزم بنو سليم ثم أهل مكة ثم بقية الناس.

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وفتحه مكة، جمعهم ملكهم - مالك بن عوف النضري - فاجتمع إليه من هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب. ولم يشهدها منهم أحد له اسم وفي بني جشم دريد بن الصمة.. شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخاً مجرباً.

وفي ثقيف سيدان لهم، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب. وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النضري.. فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ أحضر مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم.. فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة في أشجار له يقاد به فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟.. قالوا: بأوطاس. قال: نعم، مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس.. مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟.. قالوا - ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال أين مالك؟ قالوا: هذا مالك - ودعي له قال: يا مالك.. إنك قد أصبحت رئيس قومك وأن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام.. مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟. قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله

وماله ليقاتل عنهم. قال: فانقض به، ثم قال: راعي ضأن والله هل يرد المنهزم شيء.. إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.. ثم قال أين كعب وكلاب؟. قال: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم كما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: ذانك الجذعان لا ينفعان ولا يضران.. ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصباة على متون الخيل.. فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.. قال: والله لا أفعل.. إنك قد كبرت وكبر عقلك، ثم قال مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي.. فقالوا: أطعناك.. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

فلما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي - وأمره أن يدخل في الناس فيسمع منهم ويعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من أمر هوازن ما هم عليه.. ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ.. فأخبره الخبر فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً.. فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك - فقال يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً. فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟. قال بل عارية، وهي مضمونة حتى نؤديها إليك.. فقال ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.. فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ثم خرج رسول الله ﷺ - معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة وكانوا اثني عشر ألفاً.. واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً.. ثم مضى يريد لقاء هوازن.

فقال ابن إسحاق.. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة

أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً. قال: وفي عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه، وأجنابه ومضائقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين.. ثم قال: إلى أين أيها الناس؟.. هلم إلي أنا رسول الله.. أنا محمد بن عبد الله.

وبقي مع رسول الله ﷺ - نفر من المهاجرين وأهل بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن وقتل يومئذ.

قال: فاجتلد الناس. قال فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الطعن.. فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته، وصرخ جبلة بن الجنيد - وقال ابن هشام: صوابه كلده.. الآن بطل سحر محمد.. فقال صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركاً: اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

وذكر ابن سعد أن شيبة بن عثمان الحجبي قال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة، قلت أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه.. فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً - ما أتبعته أبداً.. وكنت مرصداً لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة.. فلما اختلط الناس - اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته فأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه.. ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه فالتفت إلى رسول الله ﷺ.. فناداني يا شيب.. ادن مني.. فدنوت

منه فمسح صدري ثم قال.. "**اللهم أعذه من الشيطان**".. قال - فوالله لهو ساعتئذ كان أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي.. ثم قال: ادن فقاتل - فتقدمت أمامه أضرب بسيفي - الله أعلم - إني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف.. فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، فكروا كرة رجل واحد، وقريت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه، فدخلت عليه ما دخل عليه أحد غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به.. فقال يا شيب.. الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك.. ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط.. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.. ثم قلت: استغفر لي - فقال: غفر الله لك.

وقال ابن إسحاق - وحدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب - قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحَكَمَة بغلته البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: إلى أين أيها الناس؟! قال: فلم أر الناس يلوون على شيء.. فقال: يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة.. فأجابوا: لبيك لبيك.. قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة واستقبلوا الناس.. فاقتتلوا.. فكانت الدعوة أول ما كانت يا للأنصار.. ثم خلصت أخرى، يا للخزرج، وكانوا صبراً عند الحرب.. فأشرف رسول الله ﷺ في ركابه.. فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون.. فقال: الآن حمي الوطيس. وزاد بعضهم أنه قال:

**أنا النبي لا كذب  أنا ابن عبد المطلب**

*****

# حصار النبي ﷺ للطائف

وأما حصار النبي ﷺ للطائف حيث ذكر الكاتب أنه ابتداء بالاعتداء من النبي ﷺ بدون سبق اعتداء منهم عليه، وهذا إنما نحمله على الجهل الواقع من الكاتب لعدم الفقه بأحكام غزوات النبي ﷺ.

وقد ابتلي الكاتب بقلب الحقائق في المعقول والمنقول حتى تسلط بالتحريف على غزوات الرسول.. ومن الواجب على العالم العاقل متى تصدى لتأليف أي كتاب فيما يرجو به النفع للإسلام والمسلمين بأن يكون لديه مؤهلات علمية واسعة يعرف بها الحق بدليله ويميز بين صحيحه وعليله فيتضح له الطريق ويتمكن من إبراز دلائل التحقيق. فإن العلم الصحيح هو سلاح الدنيا والدين والواقي عن الوقوع في الخطأ المهين حتى لا يعتدي بجريمة الخطأ على الدين ولا على رسول رب العالمين ولا على علماء المسلمين المؤلفين.

فنسبة الابتداء بالاعتداء من الرسول على هوازن والطائف وقريش في بدر وغيرها كل هذا يعد من الخطأ المبين، ولا ننسب استباحة القول به على التعمد منه، وإنما نشأ عن نقص العلم وقصور الفهم، فهو يطعن في الدين من حيث يحاول نصره، ويضره من حيث يريد نفعه، وهو بالحقيقة لا الدين نصر، ولا الباطل كسر.

**ويسألني عن علتي وهو علتي  عجيب من الأنباء جاء به الخبر**

ومن العناء العظيم استيلاد العقيم والاستشفاء بالسقيم.. فما أبعد البرء من طبيب داؤك من دوائه، وعلتك من حميته.

أما حصار النبي ﷺ للطائف فإنهم البادئون بالاعتداء عليه في بداية الأمر ونهايته.. فهم محاربون لله ورسوله وعباده المؤمنين، ويستحقون القتل والقتال لثلاثة أمور:

**أحدها:** أن النبي ﷺ سافر إليهم قبل هجرته إلى المدينة لنشر دين الله وليطلب منهم أن يؤووه لتبليغ رسالة ربه، وأقام عندهم فيما قيل عشرة أيام يتردد

على الرؤساء والأكابر.. ثم تمالؤوا عليه بينهم، وقالوا: إنه يريد أن يسفه أحلامنا ويفسد أولادنا.. فأرسلوا عليه سفهاءهم، فأخذوا يرمونه بالحجارة ورؤساؤهم يضحكون من فعلهم به.. وكان زيد بن حارثة يقيه ببدنه من وقوع الحجارة لتقع فيه دونه حتى رجع النبي ﷺ كئيباً حزيناً.. وهذا نوع من بداءتهم بقتاله.

**الأمر الثاني:** أن ثقيف أهل الطائف شاركوا هوازن في حرب رسول الله ﷺ يوم حنين، وعندما نصر الله نبيه وأصحابه فروا إلى بلدهم فغزاهم النبي ﷺ بعد فراغه من هوازن لقول الله سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(١).

وهل غزوهم في بلادهم لمشاركة هوازن في حرب الرسول وأصحابه إلا صريح في الابتداء بالاعتداء حنقاً منهم على الرسول في فتحه مكة وهي عداوة تليدة؟.

**الأمر الثالث:** أن النبي ﷺ لما أقبل على أهل الطائف يريد أن يدعوهم إلى دين الله راجياً أن يكونوا كأهل مكة في استجابة دعوته وعدم مقاتلته.. برزوا لقتاله.. فرماهم بالمنجنيق، ونصب عليهم الدبابة، فكانوا يرمونه بنبال الحديد المحماة بالنار من فوق السطوح ومن وراء الحيطان حتى قتلوا سبعة من أصحابه.. فانصرف عنهم النبي ﷺ وتركهم.

فكل واحدة من هذه الثلاث تستوجب قتلهم وقتالهم كسائر المحاربين لله ورسوله وعباده المؤمنين.. فما بالك باجتماع الثلاث فيهم.. وكل ما ذكرنا.. فإنه من العلم الذي اتفق عليه سائر علماء السير والمؤرخين.

**ومن البلية عذل من لا يرعوي  عن غيه وخطاب من لا يفهم**

فكل غزوات الرسول صريحة في كف العدوان عن الدين وعن عباد الله المؤمنين كما سبق في غزو هوازن لحربه.. حيث زحف ملكهم بجنوده من عوالي نجد

---

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

بمن معه من قبائل العرب حتى نزل بحنين القريبة من مكة لقصد الهجوم على الرسول وأصحابه لظنه أن المغلوبين من أهل مكة سيساعدونه.. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

والحاصل أن النبي ﷺ في غزواته كلها إذا قاتل فإنما يقاتل لرد العدوان على الدين أو على المؤمنين وليس هذا بالظن ولكنه اليقين حتى ما يبدو للناس من بعض غزواته أنها وقعت ابتداء بما يسمى الطلب فإنه بالتحقيق يتبين أن لها سبباً من اعتداء المشركين عليه كغزوة بني المصطلق، فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون يسقون مواشيهم على مياههم. فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحاق: أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون لحربه وقائدهم الحارث ابن أبي ضرار فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد، فتزاحم الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل، وذلك في شعبان سنة خمس من الهجرة. فهذه القصة تثبت الابتداء بالاعتداء من بني المصطلق على النبي ﷺ وإن لم يتم لهم أمرهم لكون النبي ﷺ عاجلهم قبل أن يفاجئوه لاعتبار أنهم قد أعلنوا بحربه، والمحاربون يقاتلون على أي حال وجدوا.

*****

## فصل

قال الكاتب:

(إن الذين يحاولون تغيير واقع الحال وتبديل الحق بعد مشاهدته بالعيان يخطئون ولا يعلمون أنهم يخطئون. بيد أنه هنا يصعب جداً إنكار هذا الظاهر.. فما معنى هجر الأوطان والأولاد وطلب المشركين والكفار في ديارهم النائية إن لم يكن معنى الجهاد بأوسع معانيه؟.

إن الذهاب لنشر هذا الدين والخروج من أجل ذلك لا يحصر الجهاد بالدفاع فقط. وإن طبيعة الجهاد في الإسلام هي المبادأة بالقتال إذ ما معنى الدفاع هنا واللغة العربية قد حددت له مفهوماً لا يتعداه من حيث العموم؟) انتهى.

وأقول - إن الكاتب لما فسد تصوره للجهاد بالدفاع حيث وصفه بنطاح البهائم قائلاً:

إننا إذا قلنا بالدفاع في الجهاد.. فما الفارق بين الإنسان وبين سائر الحيوان الذي همه أن يدافع عن نفسه لا غير. انتهى كلامه.

فمتى كان هذا اعتقاد هذا الكاتب في صفة الجهاد بالدفاع فلا غرابة في القول منه بإنكاره ثم التحامل بالملام وتوجيه المذام على من قال بصحته؛ لأنه متى ساء الفهم فسد التعبير وساءت النتيجة.. فتراه يقول (ص ١١٦):

إن جهاد الصحابة ومن بعدهم في القرون المفضلة يدل دلالة واضحة على أن قتالهم كان لإعلاء كلمة الله في الأرض والسماء ولا يمكن ذلك ولا يعقل أبداً إلا إذا كان جهادهم لطلب العدو ومن أجل إسلامه ودخوله دين الإسلام. انتهى كلامه.

ونقول: إنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه أكره أحداً على الإسلام لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا المكره، وقد فتح مكة ولم يكره أحداً منهم على الإسلام بعد قدرته عليهم، بل قال اذهبوا فأنتم الطلقاء، حتى دخلوا في الإسلام من تلقاء أنفسهم طائعين مختارين.

وقد غزا بعض قريش معه هوازن وهم على شركهم. منهم صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان الحجبي وغيرهما.

وقد جعل الصحابة هذا الفتح بمثابة الدستور الذي يسيرون عليه في أدب فتوحهم للبلدان. ومن المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم خرجوا من بلادهم وفارقوا أهلهم وأولادهم لنشر هذا الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض والسماء، وليس جهادهم مقصوراً على القتال بالطلب حسبما يدعيه الكاتب. إذ الجهاد مأخوذ من بذل الجهد والطاقة في إعلاء كلمة الله ونصر دينه والتبشير به والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وجدال المخالفين بالتي هي أحسن، وقد شرط العلماء في الجهاد بالقتال تقدم الدعوة عليه. إذ الجهاد بالقتال هو من الضروريات التي شرعت لجلب المصالح ودفع المضار. فهو آخر ما يستعمل من وسائل الجهاد على حد ما قيل: "آخر الطب الكي".

وقد قلنا فيما سبق - إن الله سبحانه أمر بإبلاغ هذا الدين ونشره والتبشير به جميع خلقه.. فقال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[1]. فمتى أقبل دعاة الإسلام والمسلمين إلى بلد ليدعوا أهله إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن.. فإن فتح لهم الباب وسهل لهم الجناب وأُذن لهم بالدخول ونشر الدعوة والاتصال بمن يرغبون هدايته فهذا غاية ما يبتغون، وبذلك فليفرح المؤمنون.. فلا قتل ولا قتال، وكل الناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

وقد فتح الصحابة كثيراً من البلدان بهذه الصفة أكثر مما فتحوا بالسيف والسنان.

أما إذا نصبت لهم المدافع، ووجهت نحوهم أفواه البنادق، وسلت في وجوههم السيوف، ومنع الدعاة منعاً باتاً عن حرية نشر الدعوة وعن الاتصال بالناس في إبلاغها ودعوة الناس إلى دين الله الذي فيه سعادة البشر كلهم في دنياهم

(١) سورة الأنعام: ١٩.

وآخرتهم. فمتى منعوا ذلك. فإنهم يعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين بمنعهم الخلق عن سماع الحق واتباعه، وبذلك يعتبر المسلمون بأنهم مكلفون من الله باقتحام كل شدة ومشقة، وخوض كل خطر وضرر في سبيل الله وفي سبيل إبلاغ دين الله حتى يزول المنع والاضطهاد والفتنة عن الدين.

يقول الله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(١).

نظيره قوله.. ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢). فتضمنت هاتان الآيتان من سورة البقرة الغاية من انتهاء القتال وهو أننا نقاتلهم حتى يكفوا عن فتنتنا في ديننا كما كانت قريش تفتن كل من آمن وحتى يكفوا عن قتالنا فنكف عن قتالهم، وحتى لانتهاء الغاية بحيث يكون ما بعدها نقيضاً لما قبلها. ولم يقل سبحانه وقاتلوهم حتى يسلموا. لكون الإسلام هداية اختيارية لا إكراه فيها بنص القرآن في قوله سبحانه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٣).. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٤).

فكل ما يسمعه الناس ويثبته التاريخ من وقوع القتال بين الصحابة زمن الخلفاء الراشدين وبين الكفار في فتوح البلدان كمصر والشام والعراق وبلدان فارس وغيرها. فهذا القتال إنما يقع خارج البلدان حين يخرج أهلها إلى الصحابة بقواتهم وسلاحهم لصدهم عن دخول البلد ومنع نشر الإسلام بها وبذلك تنعقد أسباب القتال ويعتبر هذا القتال جهاداً بالدفاع.. لدفع شرهم وعدوانهم.. ومتى نصر الله المسلمين عليهم ودخلوا البلاد فإنهم يضعون السلاح ويمنعون القتل ويأخذون في نشر الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، وبذلك يعتبر المسلمون بأن دين الله هو

(١) سورة البقرة: ١٩٣.
(٢) سورة البقرة: ١٩١-١٩٢.
(٣) سورةالبقرة: : ٢٥٦.
(٤) سورة يونس: ٩٩.

الظاهر فلا يعاقبون أحداً على عقيدته بل يعظونه بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول الله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾(١).

وقد أمر الله نبيه بأن يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(٢).

والمقصود أن العرب المسلمين من الصحابة والتابعين خرجوا من جزيرتهم وفارقوا أهلهم وأولادهم في سبيل نشر دين ربهم وإعلاء كلمته، فالقرآن بأيديهم يتلونه ويدعون إلى العمل به. ففتحوا الكثير من البلدان بالقرآن أكثر مما فتحوا بالسيف والسنان فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي وتحولوا بهدايته من الفرقة والاختلاف إلى الوحدة والائتلاف، ومن الجفاء والقسوة إلى اللين والرحمة، ومن البداوة والهمجية إلى العلم والحضارة والمدنية، واستبدلوا بأرواحهم الجافية الجاهلية أرواحاً جديدة دينية صيّرتهم إلى ما صاروا إليه من عزة ومنعة وعرفان.

وقد أنجزهم الله ما وعدهم به في القرآن بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٣).. وصدق الله وعده فكانوا هم ملوك الأمصار.

فهدى الله بهم وبدينهم ودعوتهم أعظم شعوب الأمم من النصارى والعجم، فأسلموا وحسن إسلامهم. ونظموا في بلدانهم دولة عربية مسلمة كانت سعادة البشر كلها، وكانت زينة الحياة في العلوم والفنون والحضارة والعمران. وإنما كانوا يفضلون غيرهم بصلاح أرواحهم الذي يتبعها إصلاح أعمالهم، وذلك أن المسلم العربي يتولى حكم ولاية أو بلد وهو لا علم عنده بشيء من قوانين الحكومة ولم

(١) سورة الشورى: ٤٨.
(٢) سورة يونس: ١٠٨.
(٣) سورة النور: ٥٥.

يمارس أساليب السياسة ولا طرق الإدارة. فيصلح الله به تلك الولاية.. فيزيل فسادها، ويحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها، ولا يستأثر بشيء من أموالها ومظالمها.. وإنما يخرج من عمله بثوبه الذي دخل به، فيسعد الله به رعيته لكون النفس متى صلحت أصلحت كل شيء، وإذا فسدت أفسدت كل شيء.

وإن أكبر عامل ساعد الصحابة والتابعين على فتح البلدان وتوسع الناس في الدخول في الإسلام في كل مكان.. هو تأثر الأمم بسماع القرآن خصوصاً بعدما تعلموا اللغة العربية التي بها بلاغة القرآن.. إذ كانوا يتلونه ويسمعونه في صلاتهم المفروضة، وتجدهم ينقلونه من بلد إلى بلد، فسرعان ما دخلت محبة دين الإسلام في قلوب الخاص والعام.. فأيقظ الأنفس من غفلتها وجهالتها، وطهرها من خرافات الوثنية المستعبدة لها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. إن الله لذو فضل على العالمين.

*****

# حروب الصَّحابة لفارسٍ والرّوم

وأما حروب الخلفاء الراشدين لفارس والروم.. فقد اشتبه أمرها على بعض العلماء المتقدمين من الفقهاء والمفسرين بما فهموه من بعض الآيات وبعض الغزوات والسرايا مما يوهم أن المسلمين هم البادئون بالحرب لسائر الأمم وخاصة حروبهم في فتح البلدان زمن الخلفاء الراشدين فيظنون كل الظن أنه هجوم محض، وخفي عليهم سبب بداءة الحرب بينهم وبين المشركين وبينهم وبين فارس والروم بتسلط النصارى على المسلمين بقتلهم كل من أظهر إسلامه في سائر البلدان التي سيطروا عليها في الشام وغيرها.. فهذا وإن ظنه بعض الناس هجوماً لكنه حقيقة دفع لشرهم.

إن الغرض من الحرب ونتيجتها هو دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن وعبادة المسلمين ربهم آمنين في دينهم ووطنهم وإعلاء كلمة الحق ودعوة الدين وتنفيذ شريعة الله. وكل هذا تعود مصلحته إلى البشر كلهم مسلمهم وكافرهم إذ هو دين الله لكافة البشر، والذي قال الله فيه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(١). وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٢).

إذ لولا هذا القتال الذي شرعه الله.. ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٣).

ونصر الله هو أن يقصد بالحرب حماية الحق وإعلاء كلمته.

أما حروب الصحابة لفارس والروم فإن الأصل فيها:

---

(١) سورة الأنعام: ١٩.
(٢) سورة المائدة: ٣.
(٣) سورة الحج: ٤٠-٤١.

أنها - لما اجتمعت كلمة أكثر العرب في الجزيرة على الإسلام وعلى التمسك به، والعمل بموجبه، صار أولئك الجيران أعداء لكل من أظهر الإسلام فيؤذونهم ويضربونهم. وقد قتل النصارى بعض من أسلم من المسلمين بالشام.. فهم بدؤوا بحرب المسلمين بغياً وظلماً.. والمسلمون متكافلون كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.. فيجب الدفاع عن أفرادهم كما يدافعون عن أنفسهم وأولادهم وبلدانهم فيقاتلون في سبيل ذلك حتى تزول الفتنة عن الدين وعن المؤمنين المستضعفين. فأرسل رسول الله ﷺ سرية أمّر عليهم زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب ثم ابن رواحة، وهو أول قتال قاتله المسلمون مع النصارى بمؤتة من أرض الشام.

وكان جيران جزيرة العرب من الروم بالشام ومصر وفارس والعراق اعتدوا على بعض من أسلم من المسلمين.. فأخضعوهم لسلطانهم وكانوا يكتبون لبعض المسلمين يدعونهم إلى دينهم كما كتبوا لكعب بن مالك لما هجره رسول الله ﷺ على تخلفه عن غزوة تبوك. وكان الصحابة يترقبون هجوم غسان عليهم. وهم ملوك الشام لما بلغهم أنهم ينعلون الخيل لغزوهم حتى أصيبت المدينة بالخوف الشديد من ترقب هجومهم.. وعند ذلك أمر النبي ﷺ: بغزوة تبوك لما بلغه أن الروم قد جمعوا جموعاً كثيرة بالشام وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء لقتال المسلمين وساعدهم على ذلك متنصرة العرب. ولهذا أمر النبي ﷺ بالخروج في ذلك الوقت الحرج، وكان المسلمون في شدة من العسرة والمجاعة وانقطاع الظهر.. سميت غزوة العسرة وهي الغزوة التي ظهر فيها صدق المؤمنين ونفاق المنافقين. وقد أرسل النبي ﷺ شجاع بن وهب الأسدي بكتابه إلى الحارث بن شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام.

وكانت غسان هم ملوك عرب الشام، وكانوا حرباً لرسول الله ﷺ. قال شجاع: فوجدتهم ينعلون خيولهم لمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه.. فانتهيت إليه وهو في غوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والأبطال لقدوم قيصر. وقد أقبل من حمص إلى إيلياء (القدس).. قال.. فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبيه إني رسول - رسول الله إليه. فقال: إنك لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا.. وجعل حاجبه وكان رومياً يسألني عن رسول الله.. فكنت أحدثه عنه وما يدعو إليه، فيرق قلبه حتى يغلب عليه البكاء، ويقول: إني قرأت الإنجيل فأجد صفة

هذا النبي بعينه.. فأنا أومن به وأصدقه لكني أخاف من الحارث أن يقتلني متى علم بإسلامي.

قال شجاع: وخرج الملك - أي الحارث الغساني - يوماً فجلس فوضع التاج على رأسه، وأذن لي بالدخول عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به كالكاره له، وقال: من ينزع مني ملكي.. وقال: إني سائر إلى صاحبك ولو كان باليمن.

ولم يزل تعرض عليه الخيول، ويأمر أن تنعل ثم قال لي: أخبر صاحبك بما ترى.. وكتب إلى قيصر يخبره بخبري، وما عزم عليه من غزو الرسول وأصحابه وأجابه قيصر وقال: لا تسر ولا تعبر إليه واله عنه.. فلما جاءه كتاب قيصر دعاني.. فقال: متى تريد أن ترجع إلى صاحبك؟ فقلت غداً فأمر لي بمائة مثقال ذهباً، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال حاجبه اقرأ على رسول الله مني السلام. فقدمت على رسول الله ﷺ وأخبرته خبره.. فقال رسول الله ﷺ: باد ملكه.

من المعلوم.. أن فارس والروم كانتا أمتي حرب وقتال، ولديهما الاستعداد التام بالعدد والعتاد، وقد ضربتا بجرانيهما على ما جاورهما من بلاد العرب، وسعيا سعيهما في إضلال العرب وإفساد دينهم، وفي تنكرهم على رسول الله ﷺ وعدم إجابتهم له. والعرب مستذلون تحت سلطانهم وسيطرتهم ولم يستقلوا استقلالاً تاماً إلا بعد الإسلام.

فلما علما بإسلام العرب.. أخذا يعملان عملهما في التضييق عليهم وتعذيبهم كي يرجعوا عن دينهم.. لأنه ساءهم دخول أكثر العرب الإسلام.. وخشوا صولة الدين عليهم مما يخافان أن يقوض ممالكهما.. فكان كل منهم يهدد دعوة الإسلام في بلاده وبجواره ويمنعون أشد المنع من نشرها في بلادهم.. وكانوا يؤذون كل من يظنون أنه أسلم.. فكانت حرب الصحابة كلها لأجل حماية الدعوة وحماية المسلمين من تغلب القوم الظالمين. لا لأجل الإكراه على الدخول في الدين.

إن التنازع بين الناس في مرافق الحياة ووسائل المال والجاه والسلطان كله غريزة من غرائز البشر، وقد يفضي التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات كما هي عادة البشر من قديم الزمان، وقد يكون التنازع والتقاتل لسبب تملك الأقطار واتساع العمران وتسخير الناس للسلطة الظالمة والسلطان الجائر.. فيكون

ضرره كبيراً وشره مستطيراً. أما القتال المذكور في القرآن وفي سيرة الرسول ﷺ وخلفائه وأصحابه فإنه مبني على قواعد العدل والرحمة وعموم المصلحة للبشر كلهم، فما كان النبي ﷺ يطلب بالقتال ملكاً ولا مالاً ولا سلطاناً، وقد عرض عليه رؤساء قريش كل ذلك على أن يكف عن دعوته فلم يقبل، وإنما يطلب أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه الظاهر. وكان قتاله ودفاعه في سني الهجرة دفاع الضعيف للقوي إلى أن أظفره الله وأظهره على قريش بفتح مكة عنوة.

إن المسلمين في دعوتهم لأمتي فارس والروم لم يستعملوا القوة في بداية أمرهم.. وإنما كانوا يطلبون من الممتنعين بأن يسمحوا لهم بنشر دين الله في بلادهم. دين الحق. دين جميع الخلق، والذي أوجب الله بأن ينذروا به ويبلغوه جميع خلقه، يقول الله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(١). فهم ينذرون ويحذرون ويبشرون بقول الله سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢). لأنه دين الفطرة السليمة والطريقة المستقيمة، وأن الناس ينصاعون لاستجابة دعوته، ومن لوازمه تقويض دعائم ملكهم وسلطانهم.. وحتى النصارى في هذا الزمان فإن أشد ما يقع بأسماعهم هو الدعوة إلى الدين.

وهذه غاية القتال لأهل الكتاب المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٣).

إن قيام الإسلام إنما هو بالدعوة والحجة، وانتشاره السريع على بلدان العالم إنما هو بموافقته للفطرة والمصلحة.. إن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. فكان الصحابة في

(١) سورة الأنعام: ١٩.
(٢) سورة المائدة: ١٥-١٦.
(٣) سورة التوبة: ٢٩.

فتوحهم لا يتقدمون خطوة إلا والدعاة أمامهم يبينون للناس حقيقة الإسلام وما يترتب عليه من الفضل في الدنيا والسعادة في الآخرة، وبسبب هذا القتال في سبيل الله وفي سبيل حرية الدعوة حصل ما ترتب عليها من الفتوح للأقطار وسائر الأمصار حتى انتشر فيها الإسلام، وصار أكثر النصارى من الأمم حنفاء لله يعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

ثم إن المسلمين عاملوا من دخل تحت سلطانهم معاملة حسنة بمقتضى العدل والإنصاف حيث ساووهم بأنفسهم في جميع معاملات الحياة، وأقاموا أنفسهم مقام الحماة لهم دون دمائهم وأموالهم، فلا يتعرض لهم أحد بسوء، ولا إلى معابدهم ومقدساتهم. وقد أوصى عمر بأهل الذمة خيراً بأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وهذا مما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الشك والجدل.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وحيث أمر الله بإبلاغ القرآن والإنذار به والدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال مع المخالفين بالتي هي أحسن.. فمتى منع المسلمون من ذلك وهدد الدعاة أو منعوا من نشر دعوتهم في البلاد فإن المانعين لهم يعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين بقطع سبيل الدعوة إلى ربهم وإلى ما فيه صلاحهم وصلاح البشر كلهم. فبسبب منعهم عن نشر دين الله في بلادهم، فعند ذلك يعتبر المسلمون بأنهم مكلفون من الله باقتحام كل شدة ومشقة وخوض كل خطر وضرر في سبيل نشر دين الله، فيقاتلون في سبيل الله دفعاً لشرهم.. فإن

(١) سورة المائدة: ١٩.
(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

الاعتداء على الدين أضر من الاعتداء على الأنفس والأموال، والفتنة فيه أشد من القتل. يقول الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(١).

فالإسلام لم يدع إلى قتال الكفار إذا هم أذعنوا ولم يعتدوا على الإسلام والمسلمين بشركهم ولا تشكيكهم ولم ينقصوا المسلمين شيئاً، ولم يظاهروا عليهم عدوهم.. فإن أجابوا الدعوة قبل منهم. وإن امتنعوا طلب منهم الجزية، وهي نزر حقير ترمز لخضوعهم للإسلام وارتباطهم بعهده وعقده وكف الأذى والاعتداء على الدين والمسلمين مع بقائهم على دينهم. ثم إن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

والحقيقة أن المسلمين إنما شهروا سيوفهم لضرورة الدفاع عن أنفسهم وكفاً للعدوان عنهم وعن دين الله الذي أمروا أن يبلغوه. فهم لم يستعملوا القوة إلا عند الحاجة وفي حالة الضرورة، وقد فتحوا بعض البلدان بدون قتال لموافقة أهلها لدخولهم ونشر دعوتهم فيها. وسيرة النبي ﷺ وأصحابه في القتال مبنية على قواعد العدل والرحمة وعموم المصلحة لكافة البشر من غير اعتداء على دين أحد أو ماله.. ما دام محافظاً على ذمته وعهده.

*****

(١) سورة البقرة: ١٩٣.

# قتال الصّحابة للخوارج على النهرَوان

(وأما استدلال الكاتب بقتال الصحابة للخوارج زاعماً أن قتلهم هو من المبادأة التي هي الطلب.. ويسمى الهجوم، وأنه لم يوجد منهم من التعدي أو الابتداء بالاعتداء ما يوجب قتلهم وقتالهم).

وأقول: إن الخوارج إنما سموا خوارج من أجل أنهم خرجوا على الإمام - علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وعلى الصحابة، وقد وصفوا بأنهم يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان. وسبب خروجهم أنه لما وقع التحكيم بين علي ومعاوية وقد اتفقا على تحكيم أبي موسى الأشعري، عن علي، وعمرو بن العاص، عن معاوية.. فعند ذلك - قالوا حكمتم الرجال ونبذتم كتاب الله وراء ظهوركم، وحكموا بكفر الصحابة؛ لهذا السبب وهم غوغاء الناس. والغوغاء هم عون الظالم ويد الغاشم في كل زمان ومكان. وقد وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم صغار الأسنان، وسفهاء الأحلام يحقر أحدكم صلاته عند صلاتهم وصيامه عند صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية.. إذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم.. فخرجوا من صف علي ومعاوية، وقد عرفوا بالشجاعة والشدة والغلو الزائد، ويكفرون الناس بالذنب.

وقد استشار علي رضي الله عنه الصحابة في قتالهم أو قتال أصحاب معاوية.. فأشاروا عليه بالبداءة بقتالهم. قائلين: إن بقاءهم على حالهم خطر علينا وعلى أهلنا وأولادنا.. فاستعان بالله ثم قاتلهم على النهروان.. حتى هزمهم. وقد قال النبي ﷺ: "**يقتلهم أولى الطائفتين**" بالحق، فكان علي رضي الله عنه أولى الطائفتين بالحق عند أهل السنة، ومع ذلك.. فقد قيل لعلي.. أكفارٌ هم؟ قال: "**لا بل من الكفر فروا، إخواننا بغوا علينا**".. فقتال الصحابة لهم هو نوع من الحدود الشرعية كقطاع

الطريق.. وقد بدؤوا يعيثون في الأرض الفساد بقتل بعض الأفراد أشبه بقطاع الطريق الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾[1]، وحسبك أنهم كَفّروا الصحابة.

فقتال الصحابة لهم هو دفع لشرهم، ويدخل في نوع الجهاد بالدفاع، وهو واضح جلي لا مجال للشك في مثله.. فلا وجه لدعوى عدم تعديهم؛ إذ الحقائق تكذب ذلك، ويعدون عند العلماء من المبتدعين، وليسوا من القوم الكافرين.

*****

(١) سورة المائدة: ٣٣.

# معامَلة المسلِمين للمُخالِفين لهم في الدّين

إن النبي ﷺ: أعطى أمته مثلاً عالياً في تصرفاته ومعاملته مع المخالفين له في الدين من أهل الكتاب وغيرهم من سائر المسالمين لهم.. فقد كان يجيب دعوتهم، ويعود مرضاهم، ويرد السلام عليهم.

ففي البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم**".. حتى إنهم في تحريفهم الكلم عن مواضعه يقولون السام عليكم.. يعني الدعاء بالموت.. فيرد عليهم النبي ﷺ فيقول "**وعليكم**".

كما في البخاري عن عائشة قالت: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: السام عليكم.. فقلت: بل وعليكم السام واللعنة.. فقال: "**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله.. فعليك بالرفق وإياك والعنف والفحش**". قالت أو لم تسمع ما قالوا؟. قال: "**أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ**".

لقد سعى رسول الله عليه الصلاة والسلام بشريعته السمحة وعدله الشامل إلى أسس علاقات المسلمين بغيرهم من المخالفين لهم في الدين فسمى الله الإسلام - سلماً - لأنه مبني على المسالمة والأمان.. فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[1].. فسمى الله الإسلام سلماً.. فهو يؤثر السلم على الحرب.. كما قال سبحانه: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾[2].. أي إذا كنت في حرب مع أعدائك ومالوا إلى السلم والمصالحة فأجبهم إلى ذلك.

وقد جعل الله السلام تحية أهل الإسلام يتبادله المسلمون في صلواتهم وفيما بينهم، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام، فتسلم على من عرفت ومن لم تعرف.

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٨.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

والسلام هو دعاء بالسلامة وبمعنى الأمان فمتى سلم إنسان على آخر فرد عليه السلام.. فكأنه قد دخل معه في عهد وأمان.

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١).

وسبب نزول هذه الآية.. أن سرية من أصحاب النبي ﷺ جاءوا إلى صاحب غنم.. فلما أقبلوا عليه قال لهم السلام عليكم، فلم يردوا عليه، وقالوا: إنه ليس بمسلم، وإنما سلم علينا ليحرز عنا غنمه بالسلام.. فسبقهم القرآن بخبرهم.. وفيه الأمر بالتثبت حيث كرره مرتين متى ضربوا في الأرض غزاة خشية أن يصيبوا قوماً بجهالة، ولأن أعمال الناس يجب أن تجري على حسب ما ظهر منهم، ويرشد القرآن الحكيم إلى أنكم كنتم كفاراً مثلهم فهداكم الله إلى الإسلام.. فاشكروا الله على نعمة الهداية، فإن ربكم يحب الشكر.

ومن سماحة الإسلام ما ثبت عن النبي ﷺ من أخلاقه ومعاملته مع المخالفين في الدين.. فمن ذلك ما روى أبو داود، حدثنا سليمان بن حرب، أنبأنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس أن غلاماً من اليهود كان مريضاً.. فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له أسلم.. فنظر إلى أبيه.. فقال له أبوه.. أطع أبا القاسم.. فأسلم.. فقال النبي ﷺ: "**الحمد لله الذي أنقذه من النار**". وتوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين وسقاً من شعير.

وروى الطبراني من حديث جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: "**الجيران ثلاثة: جار له حق، وهو الجار الكافر، له حق الجوار. فجعل للكافر حقاً بجواره. وجار له حقان: وهو الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام وجار له ثلاثة حقوق: وهو الجار الرحم، له حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة**".

---

(١) سورة النساء: ٩٤.

وكان ابن عباس يقول: هلا أهديتم إلى جارتنا اليهودية.. حتى قال له غلامه: كم تقول لنا هذا، من كثرة ما يكرره عليهم، فقال: إن النبي ﷺ أوصانا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه.

ومن سماحة الخلفاء الراشدين مع المخالفين لهم في الدين ما ذكره الموفق بن قدامة في رسالته: «الرد على الموسوسين».

وحاصله أن عمر لما قدم الشام.. صنع أهل الكتاب له طعاماً فدعوه، فقال أين هو؟.. قالوا في الكنيسة، فكره دخولها، وقال لعلي: اذهب بالناس، فذهب عليّ بالمسلمين.. فدخلوا، وأكلوا، وجعل علي ينظر إلى الصور، وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل.

فالإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام يحث على الإحسان على المسلم والمخالفين له في الدين، وقد سأل الصحابة عن الصدقة على أقارب لهم من المشركين.. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(١).

فأمروا بالصدقة عليهم، كما يدل قوله سبحانه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢).

إنه لما امتد سلطان المسلمين على البلدان الأجنبية واتسعت فتوحهم على الأقطار الأجنبية صاروا يعاملون أهل الكتاب بأحسن معاملة من العطف واللطف والمساواة في الحقوق؛ لأن شريعة الإسلام توجب على المسلم أن يتواضع مع خصمه من أهل الكتاب في الجلوس للقضاء مهما كانت منزلته ورئاسته، كما جلس علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع اليهودي صفاً بصف بين يدي عمر بن الخطاب فقضى بينهما،

(١) سورة البقرة: ٢٧٢.
(٢) سورة الممتحنة: ٨.

حتى إن علياً رضي الله عنه أدرك على عمر قوله له.. قم يا أبا الحسن، واجلس مع خصمك، فمن بعد الفراغ من الخصومة.. قال عمر: أكرهت يا علي أن تجلس مساوياً لخصمك.. فقال علي رضي الله عنه كلا، ولكني كرهت حين قلت يا أبا الحسن.. يريد أن الكنية تشير إلى التعظيم أمام الخصم.

وكان أهل الكتاب يعيشون مع المسلمين متجاورين متساعدين، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، فلا يتعدى بعضهم على بعض، ولا يجعلون اختلاف عقائدهم سبباً لمثار النزاع بينهم. وصار النصارى يعيشون مع المسلمين في أمان واطمئنان. لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وسموا أهل الذمة من أجل أنهم في ذمة الله وذمة المؤمنين، من رامهم بسوء غرم وأثم.

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب أوصى في مرضه بأهل الذمة وقال: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً بأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، فصار الجميع يتعاونون على الكسب والسعي والعمران وفنون العلم والعرفان، وأخذ الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون ينشرون عليهم ظلاً ظليلاً من الرعاية والاحترام، فيحترمون معابدهم وكنائسهم، فلا يتعرض لها أحد منهم بضرر ولا يمنع أهلها من دخولها، ثم إن المسلمين يعولون سائر العجزة والعميان، ومن لا كسب له فيقومون بكفايته من المعيشة والكسوة كسائر ضعفة المسلمين.

وفي الصلح الذي أجراه رسول الله ﷺ مع وفد نجران ما يدل على ذلك. فقد روى أبو عبيد - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران فكتب لهم كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما كتبه محمد النبي لأهل نجران وحاشيتها.. لهم ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وصلبانهم وبيعهم، أي كنائسهم، ورهبانهم وأساقفتهم، أي علمائهم، على أن لا يغير لهم أسقفاً ولا راهباً من رهبانيتهم وعلى أن لا يخسروا ولا يُعَشَّروا، ومن ملك منهم حقاً فالنصف بينهم على أن لا يأكلوا الربا.. فمن أكل الربا منهم فذمتي منه بريئة،

(١) سورة الكافرون: ٦.

وعليهم الجهد فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم.. شهد عثمان بن عفان ومعيقيب والأقرع ابن حابس وغيلان بن مسلمة وأبو سفيان بن حرب.

وقد قيل: إن النبي ﷺ فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها.

وقد عمل الخلفاء الراشدون مع المخالفين لهم في الدين كل ما أوصى به رسول الله ﷺ في هذا الصلح الواقع بينه وبين أهل نجران.. فأبقوهم على عقيدتهم وملتهم وصلبانهم وكنائسهم، فلم يكرهوا أحداً على الخروج عن دينه، وبسبب هذا التسهيل وعدم الإكراه في الدين أخذ النصارى يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً طائعين مختارين.. ومن أقام منهم على دينه فإنه آمن على نفسه وماله وعياله.

وقد أساء النصارى الصنيع مع المسلمين في هذا الزمان، وفي كثير من البلدان ضد ما فعله بهم المسلمون، وضد ما كان عليه قدماء النصارى. فإن من تعاليم المسيح، الأمر بالهدوء والعفو والصفح وعدم الانبعاث بالشر، لكنهم لما تباعدوا عن تعاليم المسيح أخذوا يتميزون بالحقد والشحناء على المسلمين، وسفك الدماء والتمثيل وتشويه الأبرياء وخطف الأولاد والنساء وهدم المساجد المشيدة للعبادة وقتل الرهبان في كنيستهم.. ودين الإسلام وسائر الأديان تحرم قتل الرهبان وهدم المساجد والكنائس وسائر المواضع المشيدة للعبادة، وناهيك بحوادث لبنان في هذا الزمان فإنها لم تشهد لبنان ولا غيرها من البلدان أبشع ولا أشنع منها، حتى صارت لبنان نيراناً مستعرة وأنقاضاً مستقذرة.

وهذا العمل بهذه الصفة ينذر بشر العواقب وأسوأ النتائج عليهم وعلى كافة الناس معهم.. ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(١).

والفقهاء المتقدمون لم يهملوا حقوق أهل الذمة.. فقد نصوا على وجوب الرفق بهم ودفع من يتعرض لأذيتهم، فقال الشهاب القرافي، وهو من كبار أئمة التشريع في الإسلام، في كتابه الشهير «الفروق»:

(١) سورة المائدة: ٤١.

"إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا لأنهم في جوارنا وفي حفادنا وفي ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام. فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو أي نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام".

وقال الإمام ابن حزم في مراتب الإجماع: "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك فإن تسليمه إهمال لعقد الذمة".

وقد شهد المؤرخون من سائر الأمم بأنه ما عرف فاتح أعز ولا أقوى ولا أسرع سيراً في الفتوح من المسلمين حين دخل الإيمان قلوبهم، بل ولا أعدل ولا أرحم منهم. وإنهم لم يتوصلوا إلى ما تحصلوا عليه إلا بالإيمان بالله وحده، والسياسة بالعدل والإصلاح.. وإن جميع الشعوب لم يخضعوا لهم ويدينوا بدينهم ويتعلموا لغتهم إلا لما ظهر لهم من أن دينهم هو دين الحق الكفيل بسعادة البشر كلهم الصالح لكل زمان ومكان الذي نظم حياة الناس أحسن نظام.

فهو السبب الأعظم الموجب لدخول الناس من جميع الأمم في دين الله أفواجاً أفواجاً طائعين مختارين وهذا أمر مشهور ومشهود به من بين سائر الأمم. يعرفه كل من عرف الإسلام وأهله.

قال لوثروب ستود آرد- الأمريكي- في كتابه «حاضر العالم الإسلامي».

كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق للعادة عوامل ساعدت عليه أكبرها أخلاق العرب وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته السمحة.

وقد عرف العرب بدورهم كيف يسوسون الحكم ويوثقون السلطات حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرته في أيديهم.

فالعرب المسلمون في فتوحهم لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير. بل كانوا على الضد من ذلك. أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا تواقة إلى ارتشاف العلوم محسنة في اعتبار نعمة التهذيب، تلك النعمة

التي انتهت إليها من الحضارات السالفة. وإذا شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة، الحضارة العربية الإسلامية.

فسارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها أحسن سير.. فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة طول هذه القرون الثلاثة.

قال الدكتور جوستاف لوبون: في كتابه «حضارة العرب».. سيرى القارىء حينما نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن هي العامل في انتشار الإسلام ولكن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم.. فانتحل بعض الشعوب من النصارى دين الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم ودِيناً لما يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لا عهد للناس بمثله، ولما كان عليه دين الرسول من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى قبله.

وقال أيضاً في موضع آخر: يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصار أناس فيقترفون ما يقترفه الفاتحون عادة ويسيئون معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في أنحاء العالم.. ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم.

ولكن الخلفاء السابقين - أي الراشدين الذين كان عندهم من العبقرية ما يندر وجوده في عادة الديانات.. أدركوا أن النُظم والأديان ليست مما يفرض قسراً على الناس.. فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانيا وكل قُطْر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم فارضين عليهم جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم.

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل قدماء المسلمين، فرحمتهم وتسامحهم كان من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق الكثير من الأمم لدينهم

ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة ومخلدة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم وإن أنكر ذلك المؤرخون.

وقال ميشود - في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»:

إن الإسلام الذي أمر بالجهاد - هو متسامح نحو الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان على الخصوص لعكوفهم على العبادات.. ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس.. وقد ذبح الصليبيون من المسلمين العدد الكثير، وحرقوا اليهود عندما دخلوها..

فهذه المقالات من المؤرخين الذين يعتنون بضبط الحوادث وتشخيصها على صفتها، وهم لا ينتمون إلى الإسلام بصلة، وإنما يعطون الحوادث حقها من العناية والتفصيل.. وكفى بالله شهيداً.

*****

# جِهاد اليهود المحاربين للمُسلمين

إن الله سبحانه قد ضمن النصر للمؤمنين المجاهدين فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١). وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).. فهذا النصر المضمون للمؤمنين هو مشروط بنصرهم لدين الله وحمايته والذود عن حدود المسلمين وحقوقهم وحرماتهم وأن يجاهدوا أنفسهم على القيام بواجبات دينهم قبل أن يجاهدوا عدوهم حتى يكون الله وليهم وناصرهم والمعين لهم على عدوهم.. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٣).

ولا بد مع هذا من الأخذ بأسباب الوسائل من الحزم والعزم والاستعداد بالقوة.. كما أرشد إليه الكتاب العزيز في قوله: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾(٤) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(٥)، والقوة تختلف باختلاف الأحوال والأزمان، ولكل زمن دولة وقوة ورجال تناسب حالة القتال وزمانه.

أما إذا تخلف عملهم عن واجبات دينهم، ولم يستعدوا بالحزم والعزم والقوة لجهاد عدوهم.. فإنه يتخلف عنهم هذا النصر المضمون لهم. لأن ذنوب الجيش جند عليه، والاتكال على الإيمان بدون عمل يعتبر عجزاً ومخالفة لأمر الله ورسوله.

ولهذا يجب التفكير في سبب تخلف هذا النصر عن المؤمنين طيلة هذه السنين في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ولن يخلف الله وعده وإن تخلف هذا النصر هو من أجل تخلف إصلاح الأحوال والأعمال فتسلط الأعداء عليهم في حال تقصيرهم بواجبات دينهم وعدم استعداداهم بالقوة لمجابهة عدوهم ثم وقوع الفتن والعداوة والبغضاء بين حكام المسلمين وزعمائهم حتى صار بأسهم بينهم

---

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة الروم: ٤٧.
(٣) سورة محمد: ٧.
(٤) سورة النساء: ٧١.
(٥) سورة الأنفال: ٦٠.

شديداً مما أوجب تشتيت شملهم وذهاب حولهم وقوتهم، ولن تقوى صولة الباطل وتعظم شوكته إلا في حالة رقدة الحق وغفلته عنه، فإذا انتبه له هزمه بإذن الله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1]، غير أن الشيطان يخوف ويخذل ضعفة الإيمان ويعظم شأن أعدائهم في نفوسهم مما يدخل الرعب والرهب في نفوسهم منهم، يقول الله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في نفوسكم.

ومن هذا التخويف ما وقع في قلوب أكثر الناس من شدة خوفهم من اليهود وتعظيمهم في نفوسهم حتى يظنوا أنهم لن يغلبوا لشدة كيدهم ومكرهم وتوفر وسائل القوة لديهم، وقد غزوا قلوب أكثر الناس بالرعب والرهب.

ونسوا أن الله سبحانه قد وعد عباده المؤمنين بالنصر عليهم، فقال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[3].

إنه من المعروف المألوف عن اليهود أنهم أجبن الناس عند اللقاء وجهاً لوجه لأنهم كما أخبر الله عنهم بأنهم أحرص الناس على الحياة.

لكنهم وجدوا في هذا الزمان ملجأ منيعاً رفيعاً من متون الطائرات التي تحلق بهم إلى أجواء السماء ثم يمطرون على الناس قذائف التعذيب والتخريب. ولن يستمر لهم هذا الصنيع إن شاء الله، فإن المسلمين لديهم المادة المالية التي تؤهلهم من إدراك كل ما يريدون من وسائل القوة المماثلة أو الزائدة على قوة الأعداء مع قوة الإيمان بالله عزّ وجلّ، ومتى صدقت العزيمة وقويت الإرادة حصل المراد، وقد قيل:

---

(١) سورة الأنبياء: ١٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٥.

(٣) سورة آل عمران: ١١١-١١٢.

إنّ الحاجات هي أم الاختراعات. والمال هو المحور الذي تدور عليه رحى الحرب، ويستعان به في الطعن والضرب، إن المصارعة بين الحق والباطل والقتال بين المسلمين والكفار لا تزال قائمة وموجودة من لدن خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة، والعاقبة للتقوى. فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة أو ظن أن الله يديل اليهود على المسلمين إدالة مستمرة فقد ظن بالله ظن السوء.

لكن الله سبحانه بحكمته يؤدب عباده، فإذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه والباطل لا تقوى شوكته ولا تعظم صولته إلا في حال رقده الحق عنه وغفلته منه. فإذا انتبه له هزمه بإذن الله. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

غير أن للباطل صولة نعوذ بالله من شرها لكن عاقبتها الذهاب والاضمحلال ومن هذه الصولة ما وقع في قلوب أكثر الناس من شدة خوفهم من اليهود وتعظيمهم في نفوسهم.

وكل شيء مرهون بوقته، ومربوط بقضاء الله وقدره، وعند التناهي يقصر المتطاول. إن هؤلاء الآيسين من رحمة الله والقانطين من نصر الله قد نسوا قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[3]، وصدق الله العظيم، فإن هذا العذاب الذي وعدهم الله بأن يساموا به هو ضربة لازب في حقهم لا يفارقهم، ولا يزال ملازماً لهم بأيدي المسلمين أو بأيدي من يسلطهم الله عليهم من سائر الأمم، فإن الله سبحانه يولي بعض الظالمين بعضاً، وما سيقع بهم إلى يوم القيامة أكثر وأعظم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: ١٨.
(٢) سورة البقرة: ٢٤٩.
(٣) سورة الأعراف: ١٦٧.
(٤) سورة فصلت: ٥٣.

إن هذا الطفور والطغيان ومجاوزة الحد في الفتك والسفك والعدوان الواقع من اليهود على العرب المسلمين الفلسطينيين طيلة هذه السنين حتى أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم إلى الصحراء واستولوا عليها قسراً وقهراً وأخذوا يسومونهم سوء العذاب من القتل والتضييق والإرهاق حتى بلغ الأمر بهم إلى أشد الاختناق وإلى حد مالا يطاق.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(١).

وقد عرف العقلاء أن هذا التغلب والاستيلاء من اليهود إنما حصل بسبب ذنب من المسلمين اقترفوه، ولو استقاموا ما سقموا.

فإن ذنوب الجيش جنت عليه، والله يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(٢). فبسبب الاختلاف في النزعات والأهواء بين الملوك والزعماء تقطعت وحدة المسلمين إرباً وأوصالاً، وصاروا شيعاً وأحزاباً ففشا من بينهم الفوضى والشقاق وقامت الفتن على قدم وساق، وهي فرصة سنح للعدو فيها المواثبة، فقويت شوكته، وعظمت صولته، وتسلط على المسلمين بجبروته وقوته، حتى أخذ الناس يقولون متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب، وأن هذه الطائفة الباغية الطاغية التي حلت بساحة العرب المسلمين تقتل الأنام، وتحاول أن تجتث أصل الإسلام، ينسلون للتعاون من كل حدب ويتواثبون على أهل الإسلام من كل جانب، فإن جهادهم واجب على المسلمين بكل الوسائل، فمن لم يقدر عليه ببدنه وجب عليه بماله؛ لأن المال بمثابة الترس يستجلب به العدد والعتاد ووسائل الجهاد، ويستدفع به صولة أهل الكفر والعناد.

إن منشأ هذا التغلب بطريق الطفور من طائفة اليهود هو أنهم وجدوا جواً خالياً لا يقال لهم فيه: إليكم، إليكم فأخذوا يبيِّضون ويصفِّرون ويصنعون من

(١) سورة الحج: ٣٩-٤٠.
(٢) سورة النساء: ٧٩.

السفك والفتك ما يريدون، وإلا فإنهم أجبن أمة عند اللقاء، وقد جرب المسلمون ذلك معهم في ذي الحجة عام ٨٧ هجري الموافق ٦٨ ميلادي[1] حيث هزموهم بإذن الله بدون عناء لولا انقاذ أمريكا لهم، وصادفهم أهل الأردن وخاصة الفدائيين فهزموهم، واستولوا على قواتهم، وقتلوا منهم عدداً كثيراً، ورجعوا منهزمين يائسين حزينين.

وهذه سنته سبحانه فيمن طغى وبغى وتجبر على الناس.

إن هذه القضية قد حركت كل من في قلبه غيرة دينية أو نخوة عربية فساهموا في الفضل وتنافسوا في البذل، فساحت أيديهم بالندى، وتساعدوا على دفع الاعتداء. ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾[2] فاسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والله أعلم.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرر في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ.

(١) يوم الخميس ٢٢ من ذي الحجة ١٣٨٧ الموافق ٢١ / ٣ / ١٩٦٨م.
(٢) سورة محمد: ٣٨.

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| **مقدمة الجزء الثاني** | ٥ |
| **١- الجهاد المشروع في الإسلام** | ١١ |
| مقدمة | ١٣ |
| الجهاد المشروع في الإسلام | ١٥ |
| الجهاد بالحجة والبيان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان | ٢٨ |
| ابتداء الإذن بالقتال في سبيل الله | ٣٠ |
| قتال مشركي العرب | ٤١ |
| فتوح البلدان زمن الخلفاء الراشدين | ٤٦ |
| حكم الجزية في الإسلام | ٥٤ |
| انتشار الإسلام في الأقطار | ٥٨ |
| سنة رسول الله في فتح البلدان | ٦٢ |
| شهادة العلماء والمؤرخين من غير المسلمين لفتوح الصحابة والتابعين .. | ٦٣ |
| احترام العهود في الإسلام | ٧٢ |
| دعوة النصارى وسائر الأمم إلى دين الإسلام | ٧٣ |
| الوصايا والنصائح الموجهة إلى أمراء الجيوش | ٨٤ |
| خطبة في الجهاد في سبيل الله وفضل النفقة فيه | ٨٧ |
| قاعدة في قتال الكفار لابن تيمية | ١٠١ |

**٢- وجوب الإيمان بكل ما أخبر به القرآن من معجزات الأنبياء** ..... ١٣١
**٣- الإيمان بالقضاء والقدر على طريقة أهل السنة والأثر** ..... ١٤٣
مقدمة ..... ١٤٥
جدال الملاحدة بالقدر لصد الناس عن الدين بوقوع الشك فيه ..... ١٤٧
حقيقة القدر ..... ١٥٠
القدر هو قدرة الرحمن ..... ١٥١
كتابة المقادير ..... ١٥٥
بطلان الاحتجاج بالقدر ..... ١٦٤
أضر ابتلى به الشخص هو العجز اتكالاً على القدر ..... ١٦٨
شبهة النصارى على المسلمين في عقيدة القضاء والقدر ..... ١٧٠
**٤- عقيدة الإسلام والمسلمين** ..... ١٧٥
مقدمة ..... ١٧٧
حكمة بعثة الرسل ..... ١٧٩
الذبح لغير الله شرك ..... ١٨٠
تعليق الحجب والجامعات والحروز ..... ١٨١
حقيقة الإسلام ..... ١٨٣
الإيمان بالله رباً ..... ١٨٨
ومن الإيمان بالله الإيمان بالقرآن ..... ١٩١
رؤية الرب في الآخرة ..... ١٩٢
الإيمان بالملائكة الكرام ..... ١٩٣
الإيمان باليوم الآخر ..... ١٩٥
**٥- انحراف الشباب عن الدين والتحاقهم بالمرتدين** ..... ١٩٩

٦- واجب المتعلمين والمسؤولين في المحافظة على أمور الدين ..... ٢١١
رسالة إلى الحكام الكرام حفظهم الله ..... ٢١٣
رسالة إلى المسؤولين عن التعليم. ..... ٢٢٥
العبادات الشرعية وما تكسبه من الأخلاق المرضية ..... ٢٣١
الصلاة هي آكد العبادات ..... ٢٣٤
الصلاة جماعة ..... ٢٣٧
صلاة الجماعة في المعاهد والجامعات ومدارس البنين والبنات ..... ٢٤١
تخصيص موضع لأداء صلاة الجماعة في المدرسة..... ٢٤٤
٥- الرد السديد في بيان بطلان محاضرة عبد الحميد ..... ٢٤٧
٦- الأحكام الشرعية ومنافاتها للقوانين الوضعية ..... ٢٥٥
٧- حكمة التفاضل في الميراث بين الذكور والإناث ..... ٢٦٩
٨- حكمة إباحة تعدد الزوجات ..... ٣٠٣
٩- نهاية المرأة الغربية بداية المرأة العربية ..... ٣٢٧
١٠- منع تصوير شخصية الرسول وكلامه وحركاته ..... ٣٣٩
١١- المسكرات والخمور ..... ٣٤٩
١٢- حماية الدين والوطن عن غزو أفلام الخلاعة والفتن ..... ٣٦٧
١٣- قضية تحديد الصداق ..... ٣٧٧
١٤- الحكم الشرعي في إثبات رؤية الهلال ..... ٤٠١
مقدمة ..... ٤٠٣
الرسالة الموجهة إلى العلماء والحكام في شأن رؤية الهلال ..... ٤٠٥
حكم صوم أهل البلدان البعيدين عن خط الاستواء ..... ٤١٠
حكم الصوم في بلدان القطبين الشمالي والجنوبي ..... ٤١١

كثرة اعتراض الوهم والتخيلات في رؤية الهلال ..... ٤١٣
من فتاوى ابن تيمية ..... ٤١٩
**١٥- كتاب الصيام وفضل شهر رمضان**..... ٤٣١
مقدمة..... ٤٣٣
فصل: في تفضيل العمل بشرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام..... ٤٣٥
فصل: في ابتداء فرض صيام رمضان ..... ٤٣٨
فصل: في بشرى أهل الإسلام ببلوغ شهر الصيام ..... ٤٤٢
فصل: في تفضيل الشهور القمرية على الشهور الشمسية ..... ٤٤٥
فصل: في صفة نزول القرآن على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.. ٤٤٧
فصل: فيما يستفيده الصائم من الخيرات في الآخرة والحياة ..... ٤٥٢
فصل: في مضاعفة ثواب الصدقة والأعمال الصالحة في رمضان .... ٤٥٤
فصل: في وجوب إمساك الصائم عن الإجرام والآثام وسائر ما يجرح الصيام ..... ٤٥٧
فصل: في فضل قراءة القرآن بالتدبر ..... ٤٥٩
فصل: في صلاة التراويح ..... ٤٦٣
فصل: في فضل أكلة السحور وقت السحر ..... ٤٦٧
فصل: في أحكام الصيام الفقهية ..... ٤٦٩
فصل: في المسارعة إلى الخيرات قبل الفوات أو الوفاة ..... ٤٧٣
فصل: في فضل الدعاء وتحقق نفعه لدفع البلاء ورفعه ..... ٤٨٠
فصل: في استحباب الاجتهاد في العبادة في العشر الأخيرة من رمضان ..... ٤٨٧
فصل: في ختام شهر الصيام ..... ٤٨٩
فصل: في التذكير بزكاة الفطر ..... ٤٩٢
فصل: في نوافل الصيام والصلاة وسائر العبادات ..... ٤٩٤

فصل: المحافظة على الصلوات هي العنوان على صحة الإيمان ..... ٤٩٩
فصل: التذكير بفرض الزكاة وفضلها وما يترتب على إخراجها من الخير والبركة ..... ٥٠٦
فصل: فيمن يستحق الزكاة..... ٥١٢
**١٧- تحريم الربا بأنواعه** ..... ٥١٥
**١٨- محق التبايع بالحرام وسوء عاقبته** ..... ٥٢٧
**١٩- الحكم في لحوم الهدايا التي تذبح بمنى في موسم الحج** ..... ٥٤١
**قولهم: العقد شريعة المتعاقدين** ..... ٥٥٥
**١٩- الملحق بكتاب الجهاد المشروع في الإسلام** ..... ٥٦٧
مقدمة ..... ٥٦٩
الجهاد المشروع في الإسلام ..... ٥٨٢
العلم سلاح الدنيا والدين ..... ٥٨٤
تحقيق معنى الجهاد بالدفاع ..... ٥٨٦
فصل:..... ٥٩٤
التفاوت بين الكفار المحاربين وبين الكفار المسالمين للمسلمين ..... ٦٠١
فصل:..... ٦١١
- تحريم تحريف القرآن بصرفه إلى غير المعنى المراد منه ..... ٦١٥
القتال في سبيل الله ..... ٦١٩
هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة ..... ٦٢٣
حديث العير والنفير ..... ٦٣٠
وقعة بدر الكبرى ..... ٦٣٢
حوار الصلح والمعاهدة والمهادنة بين المسلمين والمشركين ..... ٦٣٩

وقعة خيبر ..... ٦٤٢
طريقنا في الدعوة إلى دين الإسلام ..... ٦٤٤
الفتح الأكبر الذي أعز الله به الإسلام ونصر وأذل به الباطل وكسر... ٦٤٧
غزوة هوازن (يوم حنين) ..... ٦٥٣
حصار النبي للطائف ..... ٦٥٨
فصل:..... ٦٦١
حروب الصحابة لفارس والروم ..... ٦٦٦
قتال الصحابة للخوارج على النهروان ..... ٦٧٢
معاملة المسلمين للمخالفين لهم في الدين ..... ٦٧٤
جهاد اليهود المحاربين للمسلمين ..... ٦٨٢
الفهرس ..... ٦٨٧

*****